

NANCY SPRINGER

نانسي سبرينجر



رواية ————— ترجمة: خميلة الجندي



إينولا هولمز

قضية السيدة العسراء

إينولا هولمز

قضية السيدة العسراء

نانسي سبرينجر

ترجمة: خَميلة الجندي

رواية

عرفتُ أني أحتضر
وأنا أسير بخطوات واسعة، ارتجفت من البرد. والخوف. أنصت.
تشتت انتباهي، أحسست متأخرة بحضور شيء خلفي.
صوت خفيض، ربما دقة كعب حذاء جلدي،
فوق الوحل وحصى الشارع، أو ربما زفرات أنفاس شيطانية
لكن حين فغرت فاهي المذعور لأتنفس،
حين حاولت أن أستدير، قبض شيء ما على عنقي.
شيء غير مرئي، يقبع ورائي.
مهيب لدرجة مخيفة.
يضغط، ويضغط.
ليست قبضة بشرية.
شيء أضيق يحكم قبضته عليّ،
أفعى، تضيق التفافها وتعض حنجرتي.
عجزت عن التفكير، ولم أتمكن قط من الوصول لخنجري،
رد فعلي الوحيد كان إسقاط المصباح من بين يدي،
لأحرك يدي في محاولة القبض على.. الشيء،
أيًا يكن كنهه، أحرك عنقي في عنف..
لكن بالفعل شعرت بأنفاسي تخفت،
والألم يغزو أوصال جسدي،
انفرج فمي لأصرخ، صرخة دون صوت،
خبأ نور عيني،
وعرفت أني أحتضر.

إهداء الكاتبة

إلى أمي

لندن، يناير 1899.

«لن نكون في هذا الوضع المؤسف». أعلنها الشاب الأصغر والأطول بين الشابين الجالسين في غرفة النادي الصغيرة، «لو لم تتحرش بها لتذهب للمدرسة الداخلية!». وجه حاد، ونحيف لدرجة الهزال، يذرع الأرض جيئةً وذهاباً في حدائه الطويل الأسود اللامع، وبنطاله الأسود، وسترة السهرة السوداء، بدا كطائر بلشون أسود.

«أخي العزيز». قالها الآخر جالساً في ارتياح على مقعد وثير من الحرير المغربي، الأخ الأكبر، رفع حاجبيه كما عريشة شتوية. «هذا التملل ليس أبداً من صفاتك». تحدث بهدوء، هذا ناديه، تحديداً تلك غرفته الخاصة الآمنة للحوار، كما أنه يتطلع لعشاء فاخر من وجبة الروزيف المفضلة لديه، لذا قال لأخيه الأصغر بنبرة حنو: «بينما لا يمكنني إنكار أن الفتاة الحمقاء بمفردها في المدينة الكبيرة التي تشبه القدر المغلي، وربما قد تعرضت بالفعل للسرقة وجُردت من ثيابها، أو الأسوأ، من شرفها، مع ذلك فلا زال من غير المقبول أن تسمح لنفسك بالانغماس في هذا الحس المرهف لتحل المشكلة».

التفت الآخر ليحدثه بنظرة حادة كالصقر: «كيف لا؟ إنها أختنا!».

«والأنثى الأخرى المفقودة هي أمنا، ما المشكلة؟ هل يساعد ذعرك ككلب في مخبئه في العثور عليها؟ إذا عليك أن تلقي اللوم على أحد ما»، أضاف الجالس وهو يمرر يده على نطاقه الحريري، «فأمي هي من يجب أن تتلقى اللوم». بذات النبرة المنطقية أضاف أسبابه: «أما هي من سمحت للفتاة بالجموح؛ ترتدي السراويل، تقود الدراجات، إضافة إلى تلقيها الدروس عن فضائل الرسم. أما هي من قضت أيامها ترسم الزهرات بينما أختنا تتسلى الأشجار، أما هي من بددت النقود المخصصة للمربية في إنفاقها على دروس الرقص، والفساتين النسائية الزاهية... إلخ، وأما أيضاً من هجرت الفتاة».

تمتم الأخ دون أن يتوقف عن حركته في أرجاء الغرفة: «في يوم ميلادها الرابع عشر».

تململ الأخ الأكبر من الملاحظة، وقد أخذ يضيق ذرعاً من الأمر برمته: «يوم ميلادها، أو أي يوم آخر، ما الفارق؟ أماه تنازلت لها عن عرش المسئولية، ثم وصلت لنقطة هجرها، و...».

«ومن ثم أنت فرضت إرادتك على فتاة صغيرة مكسورة القلب، أمراً إياها أن تهجر العالم الوحيد التي عرفته يوماً، لتجعلها تتخبط...».

قاطعه الأخ الأكبر بحدة: «كانت طريقة تقويمها العقلانية الوحيدة لتصبح امرأة شابة لبقة!».

«أنت، من بين الجميع، يجب أن ترى المنطق...».

«المنطق ليس كل شيء».

«حقاً تلك المرة الأولى التي أسمعك تتفوه بتلك الكلمات!».

فقد الرجل الضخم استرخاءه وراحته، اعتدل في مقعده الوثير، حذاؤه (باطن الحذاء كان غمداً لخناجر صغيرة) يدق طرقاته مسموعة على الأرض المعبدة بخشب الباركيه. سأله: «لم أنت شديد.. شديد الحساسية، متأثراً بالمشاعر؟ لم العثور على مكان أختنا الهاربة الثورية يشكل اختلافاً عن أي مشكلة أخرى صغيرة».

«لأنها أختنا!».

«الأصغر منا بسنوات عديدة لدرجة أنك بنفسك لم تقابلها سوى مرتين في حياتك».

الرجل الطويل، ذو وجه الصقر، الذي لم يتوقف عن الحركة، توقف أخيراً وقال: «مرة واحدة تكفيني». هداً صوته الحاد المتعجل وازداد نعومة، لكنه لم ينظر إلى أخيه، بل بدا يُحدق في جدران غرفة النادي المزينة بألواح طويلة من خشب البلوط، وتخرقها نظراته لتصل إلى مكان أبعد - أو وقت آخر. ثم قال: «إنها تذكرني بذاتي في نفس عمرها، متسرعة، مربكة، غريبة، ببساطة لا تتأقلم مع أي شيء».

«هراء!» على الفور لفظها الأخ الأكبر ليضع حداً لحديث أخيه وأكمل: «سخيف! إنها أنثى. منطقتها متدنٍ، تحتاج للحماية، لا يمكن عقد مقارنة بينكما». عبس، مع ذلك، كما رجال الدولة، هداً من نبرته ليملك زمام نفسه وقال: «تذكر حوادث الماضي لا يخدمنا بأي نفع، التساؤل الوحيد المنطقي الآن هو: ماذا تقترح لنعثر عليها؟».

بمجهود جليّ، حرك الأخ الأصغر نظرتة المتفحصمة البعيدة، لتقع عيناه الرماديتان الداكنتان على أخيه. بعد بُرهة صمت قال ببساطة: «لدي خطة».

«لا أتوقع سوى ذلك. هل يمكنك مشاركتي خطتك؟».

ساد الصمت.

اضطجع الأخ الأكبر في مقعده، ابتسم ابتسامة خافتة وقال: «بالطبع تحتاج لعباءة غموض.. أليس كذلك، شارلوك؟».

الأخ الأصغر، والمعروف أيضاً بالمحقق العظيم، حرك كتفه في لا مبالاة، تصرفاته اتسمت ببرود أخيه الأكبر. قال: «لا يوجد هدف مفيد لإخبارك بأي شيء الآن، عزيزي مايكروفت. إذا احتجت لمساعدتك، تأكد أنني سأواصل معك».

«إذا، لم جئت الليلة؟».

«لأفضي بما في عقلي، لمرة واحدة».

«هل من يحدثني هو عقلك بالفعل، عزيزي شارلوك؟ يبدو لي أن منطقتك ينقصه الانضباط. لقد سمحت لأعصابك بالتحكم فيك. تبدو في حالة توتر كبيرة».

«وضع محمود، على ما أظن، على الأقل أفضل من ألا تكون متوتراً على الإطلاق». بتلك الكلمات التي بدت حاسمة، قبض شارلوك هولمز على قبعته وقفازاته وعصاه، ثم التفت نحو الباب قائلاً: «أمسية سعيدة، مايكروفت».

«أطيب تمنياتي لك بنجاح خطتك، عزيزي شارلوك. أمسية سعيدة».

الفصل الأول

بصدمة كبيرة قرأت تلك البطاقة التي أحضرها لي الفتى على صينية فضية: «الدكتور چون واتسون، دكتور طبيب». قرأت الاسم بصوت مرتفع لأؤكد لنفسي أن ما أقرأه صحيح، كان من العسير تصديق أنه، من بين الجميع، سيكون أول زبائن «مكتب التحقيق العلمي» المنطلق حديثاً في يناير 1899 والأول في لندن، وبالطبع، في العالم.

الدكتور چون واتسون؟ چون اسم شائع، لكن واتسون؟ وطبيب؟ بالتأكيد هو، مع ذلك تمنيت ألا أصدق. «هل هذا من أظنه يا چودي؟».

«كيف يمكنني أن أعرف، سيدتي؟».

«چودي، سبق أن أخبرتك، ناديني الأنسة ميشل. الأنسة ميشل». أكدت مجدداً عليه، لكن ماذا أتوقع من فتى أسمته أمه چودهور (أخطأت كتابة چودبر في سجلات الأبرشية) لأن السراويل القصيرة المخصصة لامتطاء الخيول بدت أنيقة لها؟ هاب چودي أكمام فستاني المتفخخة لذا ناداني «سيدة»، لا يجب أن يناديني بهذا اللقب، وإلا لبدأ الناس بطرح الأسئلة. أردت أن أذهب عن الفتى روعه الذي منعه من إدراك أنني في الحقيقة لست سوى فتاة يافعة لا أكبره بكثير من السنوات، أردته أن يتوقف ويتراجع عن قول «سيدتي». بهدوء أكثر، متذكرة أن أخلص من أي سمة أرستقراطية في لكتني، سألته: «هل سبق وأخبرت الرجل أن الدكتور راجوستين ليس هنا؟».

«بلى سيدتي. أقصد، بلى آنسة ميشل».

حمل اسم مكتب التحقيق العلمي لقب دكتور ليسل ت. راجوستين، لأن العالم يجب أن يكون رجلاً. لكن «دكتور راجوستين» لن يتواجد قط، لأنه راجوستين حامل الدكتوراة، ليس له وجود سوى في مخيلتي، وفوق أوراق الدعاية المعلقة على الحوائط، والبطاقات المطبوعة التي وضعتها في المحال والأكشاك، وأكشاك الفاكهة، وقاعات المحاضرات، وفي كل مكان استطاعت يدي أن تصل إليه.

«إذا دعوت الدكتور واتسون إلى مكنتي، سأرى إذا كان بمقدوري مساعدته».

غادر چودي، لم يتمتع بقدر كبير من الذكاء، لكن مظهره كان أشبه «بفتى الأزرار»، صف طويل من الأزرار على جانبي أكمامه هبوطاً نحو سرواله، يرتدي قفازات بيضاء، وقبعة مخططة بخطوط أشبه بطبقات الكعك، لكن ما المشكلة؟ أغلب الأزياء الموحدة تبدو سخيفة.

حين اختفى خلف الباب، غصت في مقعدي الخشبي خلف مكنتي، ارتجفت ركبتي بشدة فتحررت تنورتي الحريرية. هذا لن يجدي نفعاً. أخذت نفساً عميقاً، أغلقت عيني للحظة واسترجعت في ذهني وجه والدتي. كدت أسمع صوتها وصورتها حاضرة في ذهني: «إينولا، ستبيلين بلاءً حسناً بمفردك».

حقق هذا التدريب الذهني ثمرته المأمولة. هدأت، فتحت عيني لأجد چودي يقود السيد واتسون نحو الصالون الذي استخدمته كغرفة انتظار.

نهضت ومددت يدي للزائر مرحبة: «دكتور واتسون. أنا مساعدة الدكتور راجوستين، الأنسة إيقي ميشل». رأيت بالضبط ما توقعت أن أراه من بطاقته: رجل إنجليزي نبيل منضبط، ليس في غاية الانضباط ولكنه قطعاً من الطبقة المتعلمة، له وجه وقح، عينان عطوفتان، وجسد مائل للبدانة.

وأملت أن يراني كما ادعيت أن أكون: امرأة شابة عاملة، تضع بروشاً دائرياً ضخماً على فستانها، ترتدي قرطين، في العموم ترفل في ثياب غير باهظة تُحاكي أحدث الصيحات (تبدو ثياباً سخيفة تماماً كالأزياء

الموحدة). فتاة بعض من شعرها المجعد مستعار، على الأرجح كان يوماً شعر فلاحه بافاروية. مُحترمة، لكنها ليست جَمَّة التهذيب. فتاة ربما والدها صانع سروج أو نادل في حانة. فتاة منشغلة على الأرجح بمطاردة زوج. إذا أصابه هذا الانطباع بأي شكل بفضل البروش السالف ذكره علاوة على قلادة أشبه بطوق الكلب، والعديد من الشرائط الملونة، ووصلات الشعر المستعار الواضحة، إذاً قد نجح تنكري.

«تشرفت بمعرفتك آنسة ميشل». خلع الدكتور واتسون بالفعل قبعته، لكنه بالطبع لم يجلس قبل أن يربت علي يدي الممدودة قبل أن ينزع قفازاته ويودعهما والعصا إلى الفتى.

قلت مشيرة إلى كرسي له ذراعان: «أرجوك، تفضل بالجلوس. اقترب من المدفأة. البرد قارس في الخارج، أليس كذلك؟».

«مروع. لم يسبق لي أن رأيت نهر التايمز في حالة تجمد لدرجة تسمح بالتزلج فوقه». بينما ألقى كلماته أخذ يفرك يديه ويقربهما من النار. على الرغم من المدفأة المشتعلة بأقصى طاقتها، لكن الغرفة لم تكن دافئة بما يكفي، وحسدت الزائر على جلسته القريبة من الدفء. بشكل ما لم يزعجني البرد أو الندى كثيراً قبل أن آتي إلى لندن، ليس قبل أن ألتقي بشحاذٍ - أو بقايا هذا الشخص - متجمدٍ على قارعة الطريق.

جلست مجدداً على الكرسي الخشبي غير المريح خلف مكثبي، ضمنت الوشاح أكثر حول كتفي، فركت يديّ (الباردتين على الرغم من القفازات التي حكتها بنفسي)، ثم أمسكت بقلم رصاص ومفكرة صغيرة.

«أنا في غاية الأسف يا دكتور واتسون لأن الدكتور راجوستين غادر بالفعل. بالتأكيد كان سيسره لقاءك. أنت ذاته الدكتور واتسون شريك السيد شارلوك هولمز، أليس كذلك؟».

بتهدب يصل لدرجة التواضع أجاب: «أجل». استدار بوجهه نحوي وأردف: «وأنا هنا بديلاً للسيد هولمز».

أخذت دقات قلبي تفرع في سراي، ارتفعت لدرجة خشيت أن يسمعها الزائر. عدت لا أستطيع الكذب على نفسي قائلة أن ضربة حظ - أو في الحقيقة سوء حظ - أتت بهذا الرجل تحديداً إلى هنا.

هنا ليستشير المختص الوحيد في العثور على الأشياء والأشخاص المفقودين.

لكنني حاولت أن أتحدث بتهدب تام، بلكنة الطبقة الوسطى السليمة، وبالانضباط الكافي الذي يمزج بين الكفاءة والرغبة الكاملة في المساعدة.

نظرت للمفكرة كأني على وشك كتابة بعض الملاحظات وقلت: «حقاً؟» ثم سألته: «ما طبيعة المشكلة التي يواجهها السيد هولمز؟».

«أثق أنك ستفهمين يا آنسة ميشل أنني أفصل الانتظار والحديث مع الدكتور راجوستين على انفراد». ابتسمت: «وأثق أنك ستفهم يا دكتور واتسون أنني المخولة بالاطلاع على القضايا لتتقيحها توفيراً لوقت الدكتور راجوستين الثمين. أنا وكيلة دكتور لوسيل راجوستين الرسمية - لست مخولة لاتخاذ خطوات رسمية بالطبع»، أضفت لأطوع عدم ثقته الفطري في أي أنثى: «لكنني غالباً ما أؤدي دور عيني وأذنيه. تماماً مثلما تفعل مع السيد شارلوك هولمز»، أضفت لأقنعه دون أن أبدو عازمة على ذلك.

حاولت ألا أظهر بمظهر المترجبة، بينما أردت أن أقول أرجوك. أرجوك يجب أن أعرف إذا كان تخميني صادقاً بشأن مجيئك إلى هنا.

قال الدكتور واتسون متشككاً: «إممم.. حسناً».

حقاً يتمتع بعينين عطوفتين، خاصة حين يقلق. أضاف: «لكنني لست أكيداً - المسألة دقيقة - اسمعي، هولمز لا يعرف بشأن تلك الزيارة».

لكن.. لم يرسله أخي؟

استقرت دقات قلبي بنسبة كبيرة، لكنه بدأ يؤلمني.

بكتابة واضحة قلت للدكتور واتسون: «يمكنك الاعتماد على تكتمي الكامل».

«حسنًا، بالطبع». وكما لو أن اهتمامي المتناقص بحديث بدا تملقًا له بشكل ما، بروح ثقيلة، تُلقني بهمومها

على كاهلي، أمسك بذراعي مقعده وبدأ يقص حكايته.

«بلا شك تعرفين أنني خدمت عدة سنوات مع السيد شارلوك هولمز في بداية مسيرته المذهلة، ولكن لأنني

تزوجت الآن وأشغل وظيفة دكتور طيب، قليلًا ما ألقاه مقارنة بالأيام الخوالي. مع ذلك لم أعفل أنه منذ

الصيف الماضي أصبح يعاني من أفكاره، وخلال الشهور القليلة الماضية أصابته وساوس كثيرة، لدرجة أنه لم

يعد يأكل جيدًا، أو ينام بما يكفي، وأمست مشغولًا بشأنه ليس فقط بصفتي صديقًا بل وطبيب أيضًا. لقد

خسر الكثير من الوزن، تبدل لونه لشحوبة غير صحية، وأصبح كئيبيًا ومهتاجًا».

انشغلت أدون تلك الكلمات «للدكتور راجوستين»، مما سمح لي بالانكباب على مكتبي لكي لا يلحظ

الدكتور واتسون تعبيرات وجهي. كان من الأفضل ألا يلحظ واتسون وجهي، لأنني أكيدة أن دموعًا

تراقصت في مقلتي. أخي، أنموذج العقل المنطقي المتجمد، أصابته الوسواس والقلق؟ غير قادر على النوم أو

تناول الطعام؟ لم أتخيل قط أنه يملك هذه المشاعر المرهفة. على الأقل ليس تجاهي.

استمر دكتور واتسون في حديثه: «على الرغم من سؤالي له مرارًا عما يزعجه بصورة مستمرة، لكنه ينكر

دومًا انزعاجاته، وحين أصرت يوم أمس على سؤاله، استشاط غضبًا، فقد، على غير العادة، زمام أعصابه،

وكذلك عقلانيته، لدرجة جعلتني أشعر بضرورة التصرف حيال مخاوفي، سواء أعجبه ذلك أو لم يعجبه،

يجب أن أفعل ذلك لصالحه. لذلك، ذهبت إلى أخيه، السيد مايكروفت هولمز...».

أدركت أن إيثي ميشل لا يجب أن تعرف شيئًا عن شقيق شارلوك هولمز. لذلك قاطعته قائلة: «إذا

سمحت، كيف يكتب اسمه؟».

«إنه اسم غريب، أليس كذلك؟».

تهجأ واتسون الاسم لأكتبه، ومنحني عنوان مايكروفت في لندن، ثم استمر في حديثه: «بعد القليل من

التردد، شرح لي مايكروفت هولمز أنه وشارلوك هولمز تشاركا الحظ العثر ذاته في عدم القدرة على تحديد

مكان والدتهما المفقودة. ولم تُفقد والدتهما فحسب، فقدت دون أي أثر، ولكن أيضًا فقدت أختها الصغرى.

عضوان من العائلة - في الواقع، كل ما تبقى من عائلتهما - اختفيا».

«يا له من أمر صعب». تمتد دون أن أرفع عيني عن الورقة. عدت لا أشعر بميل للبكاء، على العكس،

أردت أن أبتسم - وبالطبع أردت أن أرفع عقيرتي عاليًا في وجه المدعو أخي الأكبر مايكروفت، الذي أراد

تحويلني إلى سيدة صغيرة منمقة - ووجدت صعوبة في الحفاظ على تعبير معقول وأنا ألعب دور فتاة لا تعرف

شيئًا عن كل ما يُقال. فسألت: «خُطفتا؟».

هز الدكتور واتسون رأسه نافيًا: «لم تصل أي طلبات بالفدية. لا، لقد فرتا».

تذكرت ضرورة التظاهر بالجهل وأنا أقول: «يا لها من صدمة. هل فرتا معًا؟».

«لا! كلُّ على حدة. فقدت الأم الصيف الماضي، وفرت الفتاة بعدها بستة أسابيع، حين كانت على وشك أن

تُرسل إلى مدرسة داخلية. ذهبت بمفردها. أظن لهذا السبب يشعر هولمز بالكثير من تأنيب الضمير. كما

ترين، لو كانت الفتاة رفقة والدتها، ما كان ليوافق على هروبها، لكن على الأقل كان ليعلم أنها في أمان. مع

ذلك، يبدو أن تلك الفتاة - الطفلة نوعًا ما - رحلت بمفردها إلى لندن!».

«تقول طفلة؟».

«بالكاد تبلغ أربعة عشر عامًا. أخبرني مايكروفت هولمز أنه وأخوه لديهما أسباب قوية تؤكد أن الفتاة تحصلت على مصدر دخل معقول...».

زفرت شاعرة بوخزة قلق، كيف بحق السماء خمننا هذا الأمر؟

استطرد واتسون: «ويخشيان أنها تتنكر في هيئة فتى شاب له...».

ارتاحت نفسي، لأن ما خمناه عار تمامًا من الصحة. لم أفكر قط في الانحدار للنمط المسرحي بالتخفي في زي ذكر. لكنني بالطبع لم أحصر نفسي في دور إيثي ميشل.

أكمل دكتور واتسون: «ربما تتعرض لتأثيرات منحطة، وربما علققت في حياة سيئة السمعة».

سيئة السمعة؟ لم أحمل أدنى فكرة عما يتحدث عنه، لكنني بحرص سجلت ما يقول. وسألته: «هل السيد مايكروفت هولمز والسيد شارلوك هولمز لديهما أسباب لظن ذلك؟».

«نعم. كانت الأم، أو ما زالت، مناصرة بشدة لحق المرأة في الاقتراع، وكذلك الفتاة لها قالب غير أنثوي، على ما يبدو».

«حقًا! يا له من أمر مُحزن».

حدقت فيه بنظرات أسى كاذبة، حركت أهدابي المستعارة، وابتسمت من بين شفطيّ المزينة بالحمرة، بالطبع استخدمت مسحوق التجميل لأغير لون بشرتي الشاحب الأرسقراطي، وأضيف شيئًا من الحمرة العادية إليه. سألت: «هل يمكنك أن تزود الدكتور راجوستين بصورة للفتاة؟».

«لا. ولا صورة لأمها. يبدو أن كليهما تجنبت التصوير».

«لم؟».

تهند، تحولت انطباعات المرة الأولى إلى شيء من الفظاظة: «جزء من تصميمهما على التصرف عكس قواعد الأنوثة الطبيعية، هذا ما أظنه».

«هل يمكنك، رجاءً، أن تزودني باسميهما، ووصف لهما؟».

تهجأ الاسمين: ليدي إدوريا فرين هولمز، والآنسة إينولا هولمز. (أظهرت أمني براعتها في التنبؤ حين أسمتني إينولا، التي تُقرأ من اليمين إلى اليسار «وحيدة»).

قال الدكتور واتسون: «مما أخبرت يمكن القول أن الفتاة ملحوظة أكثر من أمها. طويلة نوعًا، ونحيفة...».

حاولت أن أكتسب بعض الوزن، لكنني فشلت حتى الآن، بسبب حساء رؤوس السمك، ويخنة رأس الخراف اللذين تقدمهما صاحبة النزل الذي أقطنه.

«لها وجه طويل، ويشبه... يمكن القول أن أنفها وذقنها يشبهان سيسرو...».

يا لها من طريقة دقيقة لقول أنني أشبه كثيرًا أخي شارلوك. لأنني فشلت حتى الآن في اكتساب بعض الوزن، فأنا أحتفظ داخل فمي، عند كلتا الخدين، بقطعتين من المطاط تؤديان الغرض لملء هذه النحافة الواضحة على وجهي. كلتا القطعتين ساهمت في تغيير صورة وجهي بدرجة كبيرة.

«وقوام حاد يفتقر كثيرًا لسحر الأنوثة»، تابع الدكتور واتسون: «أبدت تفضيلًا للملابس الذكورية، والأنشطة الصبيانية، تسير بخطا طويلة ذكورية، وفي المفضل ستفشل في مواكبة المجتمع إذا لم يُعثر عليها في القريب العاجل».

سألت، لأغير الموضوع قبل أن انفجر في نوبة ضحك: «ماذا عن الأم؟».

«عمرها ستة وأربعون عامًا، لكن تبدو أصغر من سنّها. لا يوجد ما يميّزها جسديًا، لكنها امرأة لها عقل قوي ومُصمم. فنانة موهوبة التي، للأسف، وجهت طاقاته إلى ما يُسمى بقضايا حقوق المرأة».

«حقًا! هل تتمنى أن ترتدي السراويل؟».

ابتسم لأزدرائي الواضح لتلك الأفكار الإصلاحية.

«من المرجح للغاية. تناصر ما يُدعى «زيًا عقلائيًا».

«وهل هناك أي دلالات تشير إلى مكان بعينه يمكن أن نعثر عليها فيه؟».

«لا. لكن الفتاة، كما قلت، من المرجح أنها في لندن».

وضعت قلّمي لأنظر إليه: «حسنًا دكتور واتسون، سأطلع الدكتور راجوستين على تلك الأخبار. لكن يجب أن أحذرك أنه من غير المرجح أن يتولى الدكتور القضية».

قضيتي الأولى، مأزق مستحيل النفاذ منه: كيف لي أن أعثر على نفسي؟ لا يمكنني النجاح في ذلك.

سألني: «ولم لا؟».

كُنْتُ بالفعل جهزت إجابتي فقلت: «لأنه لا يهتم بالتعامل مع الوسطاء. سيتساءل لماذا لم يأت السيد شارلوك هولمز بنفسه...».

قاطعني الدكتور واتسون بشيء من الغضب، على الرغم من شعوري القوي أن ذاك الغضب لم يكن منصبًا على شخصي: «لأن هولمز محافظ للغاية، ومعتز للغاية. إذا لم يخبرني سبب حزنه، هل تظنين أنه من الممكن أن يفكر في إخبار غريب؟».

قلت بحيادية: «لكنه رفيقه في مجال التحقيق الخاص».

«هذا يزيد الطين بلة. سيعتبر أن ذلك إهانة لشخصه في حضور...» بتلقائية شديدة قطع الدكتور واتسون حديثه ثم سألني: «في هذا الصدد، يجب أن أتساءل، من هو ذاك الدكتور راجوستين؟ أستمحك عذرًا آنسة.. ميشل».

إذا نسيت اسمي يمكنك كتابة حروف هولمز وبعثتها قليلًا لتحصل على الاسم، ميشل، هكذا ينطق، بسيط لدرجة سخيفة. لكنه ما كان ليخمن ذلك أبدًا. هو أو غيره.

«آنسة ميشل. لا أقصد أي تطاول، لكنني أصرح بما في نفسي من تساؤلات. لم يسمع أحد عن هذا الدكتور راجوستين. أتيت هنا فقط لأنه يدعي أنه متخصص في العثور على الأناس المفقودين...».

قاطعته معترضة: «كُل المفقودات».

«لكنني لم أجد من يعرفه ويشهد بخبرته».

«لأنه يشرع في مسيرته، كما فعل من قبل صديقك في لحظة ما. الدكتور راجوستين عليه أن يسعى لتحقيق سمعته. لكن سيهملك أن تعرف أنه تلميذ نجيب لأساليب السيد شارلوك هولمز».

بدا الدكتور واتسون متفاجئًا: «حقًا؟».

«أجل. إنه يُجبل السيد هولمز، ويعتبره قدوته. وسيفاجئه أن يسمع أن بطله عاجز عن العثور بنفسه على أمه وأخته المفقودتين».

اضطجع الدكتور واتسون في مقعده، وبدا عليه عدم ارتياح مفاجئ، تنحج ليزيل حشجة حنجرته ثم قال بتمهل: «أفترض لأن هولمز عادة ما يفقد اهتمامه بتلك القضايا. يعتبرها قضايا عادية وغير ذات ملامح واضحة، وفي العادة ما كان ليهتم بالنظر إليها. يوم أمس حين ذهبت للقاء هولمز، جاءنا السير أوستاس

أليستير، وزوجته الليدي أليستير، جاءا ليرجواه الشروع في البحث عن ابنتهما، ولكنه ردهما خائبين يجران أذيال الخيبة».

تجاهلت لا منطقية التعبير الأدبي، لأن الحديث أثار انتباهي لأمر بعينه: «السير أوستاس أليستير؟ هل فُقدت ابنته؟ لكنني لم أقرأ عن الأمر في الصحف؟».

كُور واتسون قبضته وأخذ يسعل داخلها ثم قال: «تم التكتّم على الأمر لتجنب الفضيحة».

إذا فقد خشياً أن تكون الفتاة هربت مع عشيق لها.

عليّ التحقيق في تلك المسألة. عرفت أن الدكتور واتسون لن يخبرني المزيد -بالفعل اعتبر أنه أخبرني أكثر من اللازم- لكنه قد منحني قضيّتي الأولى على أي حال. سأعثر على ابنة البارونة المفقودة.

لم يبد الدكتور واتسون سعيداً وهو ينهض، أو شك اللقاء على النهاية. ضغطت جرس المكتب ليدخل چودي ويقوده إلى الخارج. قال واتسون: «أرجو أن أقابل الدكتور راجوستين شخصياً قبل أن يُقدم على أي فعل».

«بالطبع. أين تقطن؟ الدكتور راجوستين سيتواصل معك في أسرع وقت ممكن بعدما يراجع ملاحظاتي».

كُنْتُ أكذب.

بعدما نقلت العنوان، نهضت لأصحب زائري إلى باب المنزل.

رحل واتسون، وجلست على المقعد الوثير الذي شغله، بالقرب من النار، وبدأت، لعجب الأمر، أرتجف.

الفصل الثاني

ارتجفت من الخوف. الخوف من أخي شارلوك الذي أعشقه.
كان بطلي. كان مقومي. كدت أقدمه. لكن إذا تعقبني وعثر عليّ سأخسر حريتي إلى الأبد. مع ذلك، لقد أصابه قلق كبير بشأنني؟

لا يمكنني أن أستمّر في الادعاء أنني لم أجرح شيئاً سوى كبريائه.
ولكن ماذا أفعل؟ إذا منحت شارلوك هولمز أقل تلميح يشي بسلامتي، سيستخدمه بشكل ما ليعثر عليّ.
هناك أمي أيضاً لأقلق بشأنها. كم من وقت ستقضيه لتستمتع بالحرية والسعادة، بعيداً عن قيود اللياقة و«مكانة المرأة»، قبل أن تغادر تلك الحياة؟ هل الرجال فقط مسموح لهم بالتمتع بالكبرياء؟
خطر أخي الآخر، مايكروفت، على بالي باقتضاب، لا آبه بشأن جرح كبريائه. على الرغم من تمتعه بذلك يضاهاي شارلوك، لكنه يبدو شبيهاً بقطع البطاطس المطهوه منذ ليلة أمس، بارداً وصلباً. لم يكثرث لأمرني كفاية ليحاول العثور عليّ.

لكن هناك أمراً آخر في الحساب: لم يكثرث مايكروفت بإخبار واتسون بشأنني؟
ماذا لو كان الأمر برمته كذبة؟ ماذا لو كانت زيارة دكتور واتسون هي فخ، وأن شارلوك بنفسه هو من أرسل صديقه ليتجسس عليّ؟
غير معقول. ليس بمقدور أخي أن يعرف.

لكنه بالفعل عرف ما لا يمكنه أن يعرف، أنني أملك المال. وربما لاحظ أن الدكتور راجوستين تولى إدارة هذا المكتب المزعوم، راجوستين الذي ساعدت -أنا إينولا- شارلوك في إرساله إلى السجن. ماذا لو شعر شارلوك هولمز بوجود صلة؟

غير مرجح، هكذا حكمت بعدما وازنت الأمور في عقلي. الأكثر ترجيحاً أن شارلوك هولمز -لو كان بالفعل أرسل واتسون- فقد أرسله ليتجسس بدافع الفضول، ليقمّم إذا كان هذا المكتب سيشكل له كمحقق أي منافسة تُذكر.

في هذه الحالة من المحتمل ألا تكون الرواية عن معاناته صادقة؟
لكن أكاد أجزم أن ما رأيته في نظرات الدكتور واتسون هو قلق صادق.
أمر مربك، كيف يمكنني أن أعرف ما عليّ فعله حيال الأسرة؟ التجلي الروحاني يبدو أقل غموضاً بالنسبة لي.

تمنيت لو أستطيع استشارة أمي. مع ذلك، فأنا لم أرها منذ هذا اليوم المحتوم في يوليو الماضي حين رحلت على حين غرة. بالطبع لم أعرف بالتحديد مكانها. تواصلت معها كان يتم من خلال أعمدة الإعلانات الشخصية في صحف بول مول جازيت (صحيفتها المفضلة، ثقافية لكنها أكثر تقدمية من التايمز)، مودرن وومنهود، وچورنال أوف برسونال رايتس، وعدة عناوين أخرى، مستخدمة إما الشفرة أو الأكواد لمراسلتها. على سبيل المثال، حين افترضت أنها تهيم مع العنجر، كتبت ما يلي:
أقحوانتي:

الحرف الرابع من حب حقيقي، الحرف الرابع من نقاء، الحرف الأول من أفكار، الحرف الرابع من براءة، الحرف الأول من وفاء، الحرف الثالث أو الرابع من رحيل، والحرف الأول من مثله. صحيح؟

إيشي

الأقحوان أصبح شفرتنا البديلة لكلمة «أمي» والرسالة نفسها أشارت ببساطة لبعض الزهور كما كتبت في كتاب معاني الزهور، مرجع أهدتني إياه أمي. تلك الرمزيات كانت معرفة عامة بين الناس الذين يتبادلون التحية بلغة الزهور. في إعلاني الشخصي جاءت معاني الرمزيات كالتالي، الحب الحقيقي قصدت زهرة «لا تنسيني»، نقاء قصدت زهرة الزنبق، وهكذا دواليك مشيرة إلى زهرة البانسي، وزهر اللؤلؤ، واللبلاب، وبسلة الزهور. لتشكل تلك الشفرة في النهاية الحروف المكونة لكلمة عجر.
في غضون أسبوع أجابت أمي بشفرة مماثلة مرتبطة بالزهور مفادها: «بلى. أين أنت؟». وأجبتها بالطريقة عينها: «لندن».

هكذا كانت طريقة تواصلنا. رغبت كثيرًا في رؤية والدتي، لكنني ترددت نتيجة لقوة مشاعري نحوها، فليس جميعها مشاعر حميدة.
بالتأكيد ليس جميعها طالحة. لذلك، كان من الأفضل أن أعثر عليها وألقاها في التوقيت المناسب لي، والشروط الملائمة لنفسي.

لكن الآن، تلك الأخبار المزعجة عن شارلوك.. كان من الضروري، هكذا قررت، أن أضع بعض التحفظات جانبًا.
أردت التشاور مع أمي. احتجت التشاور مع أمي.

لكن عليّ التواصل معها بأكثر الطرق حرصًا.
انتظرت حتى عدت إلى المنزل، بمنأى عن چودي وبقية الخدم. رُغم أنني كنت قادرة على أن أظن الطابق العلوي من المنزل القوطي العتيق الذي ضم مكتب راجوستين، لكن لغرض الحرص الكامل لم أفعل. بل قام «دكتور راجوستين» بإيجار تلك الغرف إلى عدد من المستأجرين البوهيميين (هذا يعضد من موقفي المادي)، بينما عثرت لنفسي على غرفة غاية في التواضع في إيست إند، حيث من غير المرجح أن يبحث أخي عني. لن يفكر أن أخته ستقطن قط تلك الأحياء الفقيرة. في مكان إقامتي، منزل متهالك مصبوغ بألوان كريهة، كنت المستأجرة الوحيدة. صاحبة المنزل، أرملة عجوز لطيفة تُدعى السيدة تابر، كانت ضعيفة السمع، تحتاج أن يصيح المرء في بوق داخل أذنها لتسمع. لذلك، لم تتمكن من سؤالي إلا أسئلة قليلة. الخادمة الوحيدة كانت فتاة تؤدي كافة مهام الخدمة والتي لم أرها قط. من كافة الجهات كان الوضع مثاليًا للتكتم على هويتي.

لذلك انتظرت حتى جن الليل، وأصبحت آمنة في غرفة نومي، متخلصة من المشد الحديدي، والشعر المستعار، والرتوش التجميلية لوجه إيقي ميشل، واسترخيت بالقرب من النار في ثياب النوم، رافعة قدمي على مقعد لأقي قدمي شر برد الأرضية القارس.

قربت شمعة نحوي، وبدأت أكتب الرسالة المشفرة لأمي:

أشجار القرانيا أربعة، السوسن اثنان، البنفسج ثلاث، كم مرة يزهر التفاح؟

قررت أن تلك الرسالة لا بد أن تكون مختلفة عن الأخريات، وأكثر صعوبة. كيف عرف أخي شارلوك أنني أملك النقود؟ هذا أقلقني بشدة. بما أنه يعرف هذا القدر، هو بشكل ما استطاع فك شفرة الرسائل بيني وبين أمي منذ رسائلنا الأولى في «عمود الأمل» في مجلة بول مول جازيت.

أخذت ما كتبه وقسمته لمجموعات كل مجموعة من ثلاثة أحرف:

أشج ارالقراني أربعة، السوسن اثنان، فسج ثلاث، ثم مرة يزه رال تفاح؟

لم أمهر المكتوب باسم إيڤي لمزيد من الحذر، ولكن أملت أن أمي ستدرك أن رسالة وارده مني حين تفك شفرة الزهور. السوسن جسدت رسالة.

لكني أيضًا تمنيت أن تدرك أمي كيف تغيرت الشفرة هذه المرة. السوسن تتميز بامتلاكها ثلاث بتلات عظام الحجم عند قمتها، وثلاث آخر في أسفلها، أما القرانيا فتتميز بأربع بتلات، والبنفسج والتفاح لهم خمس بتلات. ذكرت البنفسج لأنها تشير للصدق. والتفاح لأنه أحيانًا حين كنت طفلة صغيرة اعتادت أمي أن تقطعه لي لتريني الخمس بذور القابضة داخله، وتشرح لي كيف أن بذور التفاح تزهر من زهرة لها بتلات خمس.

بعدما كسرت أحرف الرسالة، قررت أن أعكسها.

ثم رمقت علامة الاستفهام، ستجعل من الشفرة سهلت الحل، لذا بدلتها بما تسميه أمي «فاي». ها هي ذا. تخيلت أن أمي ستحل تلك الشفرة بسهولة، لأنها لم تختلف عن الشفرة الأولى التي حيرتني بها. لكن تلك ما كانت سوى محض محاولة لجعل أمي تفكر في الرقم خمسة. أملت أن تفهم حينها أن المرء يمكن أن يُقسم الحروف الأبجدية الإنجليزية لخمسة مجموعات:

ABCDE

FGHIJ

KLMNO

PQRST

UVWXYZ

وتضم كل مجموعة خمسة أحرف، عدا المجموعة الأخيرة، لكن حرف Z بالكاد يُستخدم في الإنجليزية لذا يمكن توحيد مع الحرف Y.

لذا كانت رسالتي الحقيقية لوالدتي هي: أماه، جسر لندن ينهار، نحتاج للتحدث، بصورة عاجلة. ثم بدأت في تشفيرها بمبدلة الحروف بالأرقام، فحرف اللام يعادله رقم 32 وحرف الدال يعادله رقم 35، وهكذا.

3235341435341243241422152444

2111323224343214355334

5143221534453351444545113231

فكرت في كتابة الأرقام كلها دون فصل بينها وأترك لأمي عملية فصل الكلمات فيما بعد، ثم تراجع عن قراري. ستعاني بما يكفي في فك شفرة الأرقام (هل أقصد الحرف الثالث في السطر الثاني، أم السطر الثالث الحرف الثاني؟) لتحصل على الجملة كاملة ثم ستحتاج لجهد لتفك شفرة الكلمات، الإشارة لسقوط جسر لندن كان غرضها تحديد مكان المشكلة وأين أريد لقاءها. بدت شفرتي في شكلها الأخير كالآتي:

NYX WMA MHO SSO BLO PLE DAP TAN OLE EVI

HRE CET TWI RIS URI DFO WOO DOG

3235341435341243241422152444

2111323224343214355334

5143221534453351444545113231

نسخت الشفرة أكثر من مرة، وبأكثر من ترتيب مختلف، تأكدت من كل نسخة لمرات ثلاثة لتأكد من دقة ما كتبت قبل أن أطوي طرفي الورقة وأحكم غلقها بالشمع -شمع أبيض- لأنني لا أملك شمعا أحمر. بعدما أحكمت إغلاق أطراف الورق، وضعت جانبا.

غداً سأحمل الرسائل لشارع فليت. ثم، وإلى حين تجيب أمي، ليس في وسعي سوى الانتظار.
أكره الانتظار.

أما بخصوص ابنة السير أوستاس أليستير، فأيضاً يجب أن أنتظر. لا يمكنني الشروع في حل هذه المسألة
قبل يوم غد.

لكن عليّ أن أفعل شيئاً ما قبل أن أستطيع النوم.

لذا، نهضت من مقعدي المريح بجوار النار، وشرعت أضع ثياب الخروج. مجدداً. لكن اختلفت الثياب
تلك المرة. بدلاً من ارتداء ثياب سيدة شابة، ارتديت ثياباً صوفية تمنحني مرونة ودفئاً أكثر من ساعديّ
وحتى كاحليّ. ثم ارتديت مشدّاً قديماً وقاني يوماً ما ضربة سكين، ربطته كفاية كي لا ينزلق، لأنني لم أرتديه
للخيلاء بل للحماية. وكذلك للتسلح.

هنالك «مشد» فولاذي يجعل مقدمة الكورسيه مشدودة وقاسية مرة واحدة تماماً مثل مذكي النار، كنتُ قد
استبدلت به خنجراً ربيعاً ذا بوصات خمس طاوياً إياه في الحرملة الصوفية صانعاً له غمداً نشويماً.

هذا السلاح ذو الحدين الحاد كما الموسيقى، من الممكن وصولي إليه من خلال المشد الذي يطوق صدري
الآن أسفل فستان أسود بسيط للغاية كنت قد حكته لنفسي على أمل أن أبدو كراهبة.

ربطت وشاحي.

الفصل الثالث

بهدوء تسللت من غرفتي. كعادتها كانت السيدة تابر ذهبت إلى غرفة نومها، حتى إن كانت مستيقظة، فالسيدة العجوز ضعيفة السمع من شبه المستحيل أن تسمع خطاي الحثيثة. ولأنني حافظت على تبديل هويتي في غرفة النوم، شعرت بأن السيدة تابر ليست لديها أدنى فكرة أن الشخص الآخر، إذا جاز التعبير، مغامر، راهبة ليلية سخرت حياتها للأعمال الخيرية، كانت تقيم في غرفتها الإضافية جنباً إلى جنب مع تلك الشخصية الأخرى، وهي الفتاة السكرتيرة الشابة الأنسة ميشل.

تحسست طريقي أثناء هبوطي السلام في الظلام، لأن بالطبع في هذا المنزل المؤسف الأشبه بالزريبة لم يكن هناك وقود يضيء المشاعل. بصعوبة في الظلام الدامس بحثت عن فتحة الباب لأدس المفاتيح، فتحت الباب الأمامي بمفتاح المزلاج، خرجت، أعدت إغلاق الباب خلفي، ثم مشيت بسرعة لتقليل احتمال أن يكتشف مراقب الليل أين أقطن.

وعشوائياً كنت أسلك طريقاً مختلفاً كل مرة، أتجول بين ظلال الميادين المضاءة بمشاعل واهنة. على عكس الإيست إند حيث المصابيح اللامعة والمشاعل المضاءة بالغاز، وكذلك على عكس المشاعل الكهربائية الباهظة. هنا تعم الأضواء الواهنة الضئيلة، أو بالأحرى الغارقة في بحر من الألوان الداكنة. لندن صُبغت بالبرودة الغربية الخاصة بها، بطريقتها الخائفة. هنا، كان البرد في منتصف الليل خليطاً من سخام المدخنة، وأبخرة الفحم، ودخان الخشب، والمرض الذي يتصاعد من نهر التايمز. كان الأمر كما لو أن المرء سبح في ضباب أبرد من الجليد ولكنه لم يتجمد أبداً، ويثبت إلى الأبد في ملابسه وفي عظامه. مثل هذا الطقس الكثيف والمتجمد قد دفع جميع من لديه أي مكان يلجأون إليه إلى الداخل. حتى على سلاالم المنازل السكنية، سيجد المرء المشردين نائمين. أما الفقراء الذين ليس لديهم وقود آخر الليلة يحرقون القش المسروق من أكوام الروث خلف الإسطبلات، وقد لا يعيشون لرؤية الصباح.

عندما تأكدت أنني ابتعدت عن مسكني الخاص بدرجة كافية، دخلت في فجوة مظلمة بين المنازل وأضأت قنديلاً زيتياً أحضرته معي. بالكاد حركت أصابعي، شبه المتجمدة بفعل البرد، لأشعل ثقاباً. قد يتساءل أحدهم لماذا تخرج سيدة شابة حسنة التربية في ظل هذه الظروف. أنا لم أفهم تماماً لماذا شعرت بأنني مضطرة للتجول في الليل. ربما أكون مهووسة ببعض الشيء، مدفوعة دائماً بالرغبة في السعي، والمغامرة، والبحث. أكتشف، أبحث عن الأشياء، أبحث عن الأشخاص - الليلة، أي شخص قد يحتاج إلى مساعدة للبقاء على قيد الحياة.

وكعادتي، بالإضافة إلى عباءة الصوف الثقيلة التي ارتديتها، كنت قد خُطتُ العديد من الجيوب العميقة، المليئة بالعناصر التي قد أحتاجها: شموع وأعواد الثقاب الخشبية، الشلن والبنس، الجوارب المحبوكة التي تبعث الدفء، والقبعات والقفازات، التفاح، البسكويت، قارورة من البراندي. حملت بطانية صغيرة محلية الصنع على ذراع واحدة، وبالأخرى رفعت القنديل.

كنت أرتدي قفازات سوداء مبطنة بالفراء، ورفعت ضوء القنديل عاليًا بادئة البحث في الطرق الخلفية والطرق الفرعية والتنبه إلى أي بادرة خطر، أو أي أصوات مشاجرة غاضبة، أو صراخ، أو صوت خطوات خلفي. أرهفت السمع أيضاً إلى أصوات البكاء، وقبل أن ينقضي وقت طويل سمعت بالفعل صوت بكاء مزعجاً.

نوع منخفض وممل من البكاء. انعكاسي، كما لو كان الشخص قد استسلم، يبكي فقط للتنفس. مسترشدة بهذا الرثاء - لأن فانوسي لم يُرني سوى بضع خطوات من حجر الشارع تحت الأقدام قبل أن يخنفي كل شيء في ضباب هادئ- وجدت امرأة عجوزًا جالسة في مدخل تحاول تدفئة نفسها بوشاح يغطي رأسها وكتفيها فقط.

دنوت فسمعت خطواتي، حاولت أن تكتم بكاءها بيديها، خائفة - لكنها بكت بصوت عال مرة أخرى، هذه المرة بارتياح أكثر، وتعرفت عليّ. كثير من هؤلاء الناس عرفوني الآن. «أختاه»، همست، «قديسة الشوارع»، ومدت ذراعًا واهنة نحوي.

بصمت، لأن الأخت لم تتكلم أو تصدر صوتًا أبدًا، احتضنتها - مثل دجاجة سوداء نحيفة كبيرة تحتضن كتكوتًا أو هكذا ما بدا لي - ثم دثرتها بالبطانية التي أحضرتها معي. شيء فظ أنني صنعت بطانياتي من كتل من القماش القديم مخططة معًا، لأن أي أغطية ذات جودة أفضل كانت ستسرق من أولئك الذين هم في أمس الحاجة إليها.

ربما لم يكن وجه هذه المرأة، الذي ارتفع إلى ضوء القنديل، لم يكن مسنًا بل مرعوبًا فقط من المصاعب، وجسدها النحيل يعاني من العجز والجوع. هل كانت أرملة أم عانسة؟ وهل تركت مسكنًا مشتركًا لعدم وجود ثنائي بنسات، أم أنها دُفعت إلى أهوال الليل بسبب ضربات الزوج المخمور؟ على أي حال لن أعرف أبدًا، ألبستها جوارب سميكة ومحبوكة فوق قدميها العاريتين، ثم أخرجت من أحد جيوبي عنصرًا اخترعته، على ما أعتقد، وهو علبة كبيرة محشوة بإحكام حتى الحافة بورق مبطن كنت قد سكبت فيه البارافين. أشعلت عود ثقاب خشبيًا، وضعته فوق هذا النوع الغريب من النار المحمولة ووضعته في المدخل بجانبها، حيث بدأ يحترق، يشتعل، مثل شمعة كبيرة، ويمنح قدرًا كبيرًا من الحرارة. سوف تستمر لمدة ساعة واحدة فقط أو نحو ذلك، ولكنها طويلة بما يكفي لتدفئة نفسها.

كانت متخفية بما يكفي، كما كنت أمل، بحيث لا تجذب أي صحبة غير مرحب بها إليها. أعطيتها تفاحة وبعض البسكويت وفطيرة لحم أحضرتها من خباز وليس بائعًا متجولًا، وبالتالي قد تكون مصنوعة من لحم صحي جيد لا يختلط بلحم كلب أو قطة. «شكرًا جزيلاً لك يا أختي». لم تستطع المرأة التوقف عن البكاء، لكنها، كما اعتقدت، ستفعل بعد أن أرحل. سرعان ما تحصلت على بضع شلنات، والمال يكفي لشراء طعامها وسكنها لعدة أيام، ولكن ليس لدرجة أن تكون عرضة للقتل لذلك. ثم تراجعت إلى الورا، ابتعدت، على أمل أن تفهم أنه لا يوجد شيء آخر يمكنني فعله لأجلها.

قالت وأنا أرحل: «أختاه، قديسة الشوارع، باركك الرب!».

جعلني امتنانها أشعر وكأنني محتالة، حثالة، لا أستحق، لأن هناك الكثير والكثير مثلها، ولم أستطع أبدًا العثور عليهم جميعًا.

وأنا أسير ارتجفت من البرد، والخوف. أرهفت السمع.

غناء رقيق وصرخات مخمورة تاهت إلى مسامعي بخفوت باهت، من الشارع الآخر. منزل عموم ما زال مفتوحًا في تلك الساعة؟ تساءلت كيف يُسمح بذلك. بالتأكيد السلطات من سمحت.

قرقعة خافتة، ربما صوت دقات حذاء جلدي فوق الوحل المتجمد وحصى الطريق، وربما همسات نفس شريرة، لكن بمجرد أن فتحت فمي المرتعش لأعب الهواء، وقفزت ملتفة حولي، أمسك بي شيء ما، وقبض على عنقي.

شيء خفي، ورائي.

شيء مخيف. يُحكم قبضته. ليست قبضة بشرية. تشبه قبضة كيان مظلم أفعواني، تنشب مخالبتها في حنجرتي. أصبحت غير قادرة على التفكير، ولم أتمكن أبدًا من الوصول لخنجرتي. رد فعلي الوحيد كان أن سقط المصباح من يدي، وأمسكت بكلتا قبضتي بمخلب هذا.. هذا الشيء. أيًا كانت ماهيته فقبضته تؤلم عنقي حد التعذيب. بالفعل شعرت بأنفاسي تنقطع، وجسدي ينتفض من الألم، وفمي يتحرك مصدرًا صرخة لا صوت لها، بينما رؤيتي أخذت تجبو، وعرفت أنني أحتضر.

يبدو أنني أدركت بعد ذلك ضوءًا في الظلام، لكنه ليس ضوءًا ودودًا، كان ضوءًا برتقاليًا شيطانيًا يتراقص. شققت طريقي خارجة من ظلام بصري، شعرت بأرضية الشارع الباردة تلامس جسدي المسجى، وميّزت رقدي بجوار شعلة نار. تسرب الزيت من مشكاتي المكسورة مشكّلة بركة سرعان ما اشتعلت بسرور. في الضوء المتراقص، دنا مني ثلاثة رجال أو أربعة، تلك الذكرى غير واضحة أبدًا، أغشتها عتمة الليل والضباب، وارتبكي وألمي، ووشاح رأسي. ذكرى غير واضحة كأصواتهم السكيره.

«هل ماتت؟»

«أي حقير هذا يمكن أن يقتل الراهبة؟»

«ربما غريب عن هنا، أو لا يُحب الدين.»

«هل رآه أحدكم؟»

«هل تتنفس؟»

أحدهم انحنى رافعًا وشاحي عن وجهي. أعتقد أنه حملق في وجهي لبرهة قبل أن أدفع يديه بعيدًا. أيقظني خوفاً من قربته من - ماذا نسميها؟ غفوتي؟ لا، بالكاد يمكنني ادعاء الإغماء، ليس بأي معنى حساس للكلمة. بالطبع لا يمكن ادعاء الإغماء إذا هاجمك أحدهم محاولاً قتلك محتنقًا.

على أي حال، عودتي من اللاوعي استغرقت دقيقة أو دقيقتين، أتذكرهما جيدًا. أتذكر أنني صفعت يد الرجل التي رفعت وشاحي، ووضعتته بحرص على وجهي مجددًا، ثم تدرجت مبتعدة عن النار ووقفت على قدمي.

«أيتها الأخت، ماذا يقلقك؟»

«بروية أيتها الأخت.»

«حذار أختاه، ستسقطين.»

امتدت أيديهم لتعاونني، لكنني رفضتها - فهم مترنحون تمامًا بفعل الخمر وأنا بالكاد أتماسك - وهربت، أو انسحبت، كما تقول الجيوش، مذعورة. دون أن أحتاج لرفع سلاحي.

حفتني حالة من الذعر، والبكاء بأعين ناضبة. في الواقع، بالكاد أعرف كيف تحسست الطريق إلى مسكني. ولكن بشكل ما، وأخيرًا، وصلت إلى غرفتي حيث - مرتعشة - أشعلت المشكاة الزيتية، وكل شموع الغرفة، وسعرت نار المدفأة، مهددة الخشب والفحم حتى أضرمت شعلة أدفأت الليل وأضاءته.

ألقيت نفسي على المقعد ذي المسندين، وحاولت التوقف عن اللهاث، لأن كل نفس جرح حنجرتي. أغلقت فمي، ازدردت ريتي مرة تلو أخرى، محاولة ابتلاع الإهانة والألم. على الرغم من الدفء الذي بعثته النار، ما زلت أشعر بالبرد، ليس فقط برد الليل، بل تجمد روحي المنتحبة. احتجت للنهوض إلى الفراش. بدأت في فك أزرار ثوبي بأصابع مرتعشة شعرت بشيء عالق حول عنقي.

شيء غريب. طويل، وناعم، ومرن، أشبه بثعبان يتشبث بعنقي. رغم الألم الذي أصاب حنجرتي، صرخت وأنا أحكم قبضتي على الشيء، ألقيه بعيدًا ليرتطم بالأرض.

رقد على السجادة الصغيرة المجاورة للمدفأة.

سلاح الجريمة.. كسارة الأعناق.

سمعت أنها تصنع من الأسلاك، لكن تلك كانت مصنوعة من حبل أبيض ناعم عُقد على عصا من الخشب.

حين أمعنت النظر في تلك العقدة وجدت خصلات من الشعر البني - شعري في الحقيقة. تساقطت من رأسي حين أحكم المجرم قبضة الكسارة على عنقي.

تأرجحت في وقتي، أغلقت عيني لبرهة، حين أدركت أن ياقة معطفي الإضافية المرتفعة، المبطنة بعظام الحوت، صاحبة الفضل في بقائي على قيد الحياة. وللسبب نفسه ارتدى رجال الشرطة في لندن سترات ذات ياقة عالية. كم هو مدهش ومخيف أن تعتقد أن مثل هذه الأداة البسيطة يمكن أن تُرهب مدينة بأكملها، وحتى شرطتها.

انتابني الخوف، والخزي أيضًا، حين أدركت أن شجاعتي وحنكتي لم تكونا السر وراء نجاتي. نسيت أمر السلاح الذي دسسته في المشد، وأخذت أرفص وأركل، كما الفريسة. حسنًا، في وجود الياقة أو غيابها كنت سألقى حتفي لو لم يأت هؤلاء السكارى في موعدهم. بلى، تأكدي الأمر، بالطبع قد قاطع وصولهم عملية قتلي. وإلا لم ترك القاتل سلاحه العصري حول عنقي؟

غزت القشعريرة أوصالي، فأرغمت نفسي لأفتح عيني لأفحص السلاح.

في الواقع هو مصمم ببراعة. ربما خشبه من خشب الملقا المصقول، كالمستخدم في صناعة عصي النبلاء. بالكاد يمكن أن يمتلك بلطجي متشرد تلك الآلة متقنة التنفيذ. والحبل، من خام باهظ.

لنقل من قماش مشد نسائي.

انتابني سأم مفاجئ، وشيء من الحنق. بعقل أحق أمسكت بالآلة وألقيتها في النار.

الفصل الرابع

مكثت في مضجعي ليومين أتواصل مع السيدة تابر بالإشارة لأنني بالكاد استطعت الحديث مدعية إصابتي بالتهاب الحلق، وهو مرض شائع الانتشار خلال تلك الفترة من العام، أنا أكيدة أنها لم تشبه في أمر آخر. وقد أخفت ياقة ثوب النوم الكدمات على عنقي.

مع ذلك، لم يستطع تهدئة مشاعري وكدماتي المزعجة. بينما كنت معتادة على الألم الجسدي -كثيرًا ما سقطت في طفولتي عن الدراجة أو الحصان أو الشجرة- شعرت بغرابة أن يعتدي عليّ إنسان آخر بتلك الطريقة الوحشية. ليس التهاب الحلق وحده ما معني من تناول الحساء والهلام الذي أعدته لي السيدة تابر. بل كان بشاعة ما حدث هو ما ألمني.

الخُبث، وعدم اللياقة، ليس أكثر. وشر.. شر لم أفصح في تسميته.

أي نوع من الرجال قد يُهاجم امرأة بسلاح صنعه من عصا خشبية -عصا تُستخدم لعقاب أطفال المدارس- وحديد من مشد أنثوي؟ أداة أنثوية بحق يستخدمها نساء الطبقة الوسطى ليتمكن من ارتداء أثوابهن السخيفة، مما يجعلهن زينة للمجتمع، وعرضة لنوبات الإغماء، والإصابات الحادة، وحتى الموت! كان هروبي من أخويّ مايكروفت وشارلوك سببه إلى حد كبير الهروب من تلك المظاهر. هربت لكيلا أضرب أو أهان أو أتعرض للعنف داخل أي مدرسة خارجية، ولكن الآن أحدهما وضع هذا.. هذا الشيء حول عنقي؟

لم؟ ماذا سيسلبني؟ ولم يستخدم هذا السلاح المربك؟ هل مهاجمي رجل، أم امرأة مجنونة؟ تلك الأسئلة التي عجزت عن إجابتها. بحلول اليوم الثالث بالكاد استطعت التحدث، وعُدت إلى مكتب الدكتور راجوستين، حيث استرخيت -جسدياً إن لم يكن عقلياً- بقراءة كومة الصحف التي تراكت خلال غيابي.

عثرت على رسالتي إلى أمي في الصحف، لأنني أرسلت نسخاً منها إلى فلييت ستريت عن طريق البريد، لكن لم أعر على رسالة من والدتي.

بالطبع كان من المبكر توقع إجابة منها. مع ذلك لم أستطع ألا أبحث. أردت... هذا لا يُجدي نفعاً. شعرت بأسف على نفسي مثل طفل يريد أمه. ماذا كانت أمي لتخبرني لو كانت هنا؟ يمكن التنبؤ: «ستُحسِنين صنعاً بمفردك يا إينولا».

مقولة دوماً ما تقبلتها كإطراء.

لكن في هذا اليوم تحديداً، والألم يتفاقم في حنجرتي بسبب نتوء ينشأ داخلها، أدركت فجأة وبألم أنني أريد.. أريد شيئاً. أو شخصاً. عُدت لا أرغب في الوحدة. إينولا، بمفردها، دون أحد يرافقها الطريق. دون أحد تثق به. أو أحد يهون عليّ.

مع ذلك عرفت تمام المعرفة أنني غير قادرة على تأليف أي رفقة، على الأقل ليس قبل سبع سنوات، حين أصبح بالغة قانوناً، الآن كل من يعرفني يمثل تهديداً لي، تهديداً بأن أكشف. چودي، يمثل خطراً إذا عرف الكثير. وكذلك السيدة تابر. بائعو الخضار، والخبازون الذين يوفرون لي الطعام لأهبه للفقراء، الغسالة التي تهتم بغسل ثيابي المتنوعة ومختلفة الطراز، الحداد الذي صنع لي الخناجر، معرفتهم جميعاً مخاطرة. فكرت في تربية حيوان أليف، ولكن حتى الكلب قد يُفسد مهمامي إذا تعرف عليّ في وقتٍ أنعمد فيه التخفي. فرجينالد العجوز، كلب من فصيلة كولي من مدينة فرندل، إذا تم نقله بطريقة ما إلى لندن وقابلني، سينطلق نحوي

نابحًا بحماس مهما كانت درجة تنكري. وإذا كان رئيس الخدم لان يصحبه هو والسيدة لان وعثر عليّ، فسيفجران في بكاء سعيد، لأن السيدة كانت بمثابة أم لي، بل وأكثر...
توقفي. إينولا هولمز، توقفي عن النحيب على الفور.

احتجت أن أنهض، أتحرك، أن أنجز شيئًا.
حسنًا. لا يمكنني أن أفعل شيئًا حيال أمي، أو حيال كرب شارلوك إلى حين أستشير أمي. وعلى الرغم من أمنيته الحثيثة بالحصول على العدالة، أو بالأحرى، الانتقام! في هذه اللحظة تحديدًا لا أملك ما أفعله حيال المتعدي المجهول الذي اعتدى عليّ.

لكن هناك، بالطبع، ما يمكنني فعله حيال غاية حياتي: أن أكون شخصًا متفانيًا. يمكن أن أفعل شيئًا حيال ابنة السير أوستاس أليستير المفقودة. لقد وعدت نفسي أن «الدكتور راجوستين» في سبيل «قضيته» الأولى سيعثر عليها. أحتاج أن أعرف التفاصيل الدقيقة.

بعد القليل من التفكير، نهضت وقطعت طريقي عبر عدة ردهات وصولًا إلى المطبخ حيث الطاهية ومدبرة المنزل تحتسيان قهوة الظهيرة. بدت كلتاهما مذهولة لرؤيتي أدلف إلى المطبخ، وخائفة لأنني عادة أضغط ببساطة على زر الجرس لأستدعيهما، إذًا ما الخطب؟
رفعت صوتي قائلة الطاهية: «سيدة بايلي، لا أشعر أنني على ما يُرام. حنجرتي تعاني من التهاب شديد. هل تقترحين...؟».

سارعت السيدة بايلي قائلة استجابة لطلبي قبل أن أتمه: «بالطبع».
كما ترون، علل المرض حضوري إلى المطبخ، والذي كان، بسبب الموقد وسخان المياه، أدفًا الأماكن في المنزل. قفزت لتضع الغلاية قائلة: «شاي؟».
«قطعًا. أشكرك من كل قلبي».

«تفضلي بالجلوس آنسة ميشل»، قالتها الأخرى، السيدة فيتزسيمونس ربة المنزل وهي تقدم لي أقرب مقعد إلى النار.

جلست على الطاولة برفقتها، أحسني الشاي على عجل، وأجيب باقتضاب عن أسئلتها عن صحتي، بعد ذلك استأنفتا حديثهما. السيدة بايلي ذهبت الليلة الماضية إلى قاعة الموسيقى لتشاهد عرضًا لساحر، أو رجل تنويم مغناطيسي «أحدهما فرنسي، موشوم، قزم، أشعث الشعر والحاجب، له عينان كالذئب»، ومساعدته «عاهرة فرنسية ترتدي ثوبًا ضيقًا يفسر قسامات جسدها» رقدت على أريكة وجعلها تحدق في الشيء اللامع المعتاد - في تلك الحالة كانت شعلة شمعة - وأخذ يحرك يديه أمام وجهها كما لو كان يرشقها بتعويذته، ثم سرى مفعوله المغناطيسي إلى سائر جسدها. «اقتربت يده من جسدها بصورة فاضحة، لكنه لم يلامسها. رقدت بأعين مفتوحة كجثة هامدة، وأخبرها أن تأكل الصابون فمضغته بأكمله كما لو كان «توفي». أخبرها أنها مهر، فصهلت كواحد. أخبرها أنها جسر، فنهضت وفردت جسدها بين مقعدين صلبة كالحجر. أطلق رصاصة من مسدسه بالقرب من أذنها...».

جلست أستمع، محافظة على نفاذ صبري بصعوبة، لأن كل ما تقصه كان شعوذة ونصبًا بلا شك، التنويم المغناطيسي فقد مصداقيته منذ سنوات، هو والجثث الهامدة «المجلفنة» كهربائيًا لتبدو على قيد الحياة، وقلب الطاولة دون لمسها، والروحانيات، وتلك الأفعال غير المنطقية برمتها التي يدحضها العلم والتقدم.

«... دعانا للصعود والتجربة. أحدهم لطمها، والآخر مرر الملح أسفل أنفها، وأنا وخزتها بدبايس صغيرة، ولم تصدر الفتاة أي حركة. ثم بعد أن انتهى من تلك التجربة، قام ببعض الحركات بيديه، لتقفز

ناهضة، تبسم، وصفقنا لكليهما تصفيقًا حارًا بحق أثناء خروجهما من المسرح. ثم، الفقرة التالية، ظهر عالم فريولوجيا⁽¹⁾».

يا للهول. المزيد من علوم ما وراء الطبيعة الغابرة. قاطعتها سائلة: «هل هذا حقيقي؟ الملكة قامت من قبل بحلق شعرها ليقرأ عقلها؟».

بالكاد صدقوا قولي (لا عجب في ذلك، لأنني اخترعت الأمر في التو، فأنا أكيدة أنها شائعة غير متداولة) لكن أي شيء كان ممكنًا: هذه السيدة وتلك أقامتًا جلسة استحضر أرواح، الدوق فلان يسير نائمًا، عدد من النبلاء الشباب لهم تجربة مع الغاز المثير للضحك... إلخ. في النهاية لقد نجحت في تغيير الموضوع إلى الحديث عن الإخفاقات الرائعة للطبقة العليا، التي لا يعرف الكثير من أمثال الطاهية ورببة المنزل أي شيء عنها. الفضائح غالبًا ما «يتم إسكاتهما» في الصحف، لكن لا يمكن لأي حدث في منازل لندن أن يبقى سرًا في وجود خدم يهمسون لبعضهم البعض من منزل لآخر. قبلت قدحًا آخر من الشاي، وانتظرت فرصتي. حانت الفرصة عند ذكر عضو من نبلاء السلالة الملكية.

سعلت لأجذب الانتباه والتعاطف وسألت: «هل يمكن أن يعرف السير أوستاس إليستير؟».

قالت السيدة فيتزسيمونس: «هو؟ أشك في ذلك!».

أضافت الطاهية: «السير أوستاس هو مجرد بارون، ألا تعرفين؟».

أكملت فيتزسيمونس بصوت خافت وأعين مرتكبة: «وغير مرغوب فيه».

كانت ردة فعلي توحى بالصدمة والاهتمام: «غير مرغوب! كيف ذلك؟».

«بسبب ابنته، الليدي سيسلي! علاقة مخجلة».

أضافت الطاهية: «وبال على رأس والديها».

فأكملت رببة المنزل: «يُقال إن الليدي إليستير منهكة تمامًا. وهي كذلك بالفعل». وفي غضون عدة دقائق من الحديث بينهما تشكلت القصة في عقلي رويدًا رويدًا، على الأقل كما بناء يظهر من الضباب: السيدة المبجلة الليدي سيسلي إليستير، الابنة الثانية للسير أوستاس، تبلغ من العمر ستة عشر عامًا فقط، ولم تصل بعد إلى سن الرشد، فقدت يوم الثلاثاء من الأسبوع الماضي، حيث وُجد في صباح ذلك اليوم سلم خشبي يستند إلى عتبة نافذة غرفتها. بعد الاستجواب من سلطات الشرطة، اعترفت صديقات الليدي سيسلي أن أحدهم تقرب منها خلال صحبتها لها («بالكاد كانت تصحبهن المرافقات، وكن يمتطين الأحصنة، والدراجات، ويتسوقن بمفردهن، ماذا يحدث في هذا العالم؟»)، كان نبيلًا شابًا، يرتدي ثيابًا زاهية، لكن نسبه غير معلوم. كشف المزيد من التحقيقات إلى جانب تفتيش مكتب الليدي سيسلي أنها والنبيل الشاب كانا يتراسلان دون تعارف لائق أو دراية والديها. احتاجت الشرطة أربعة أيام، لأنها لا تملك سوى اسمه الأول، لتعثر على هذا الرجل غير المحترم، وكشفت التحقيقات أنه مجرد ابن لصاحب حانوت صغير، من المحتمل أنه يحمل الكثير من الطموحات التي تفوق مكانته في المجتمع. لكن عند هذا الاكتشاف، كان الوقت قد تأخر بالفعل («أمر فظيع إذا تزوجته، وأفزع إذا لم تفعل»)، لكن في النهاية لم تعثر الشرطة عليها رفقة الفتى. دافع الشاب عن نفسه أشد دفاع مؤكدًا أنه لم يقترف أي جرم. («حثة. الرجال لا يبتغون سوى أمر واحد»)، مذًاك تمت مراقبته وتبعه، لكن لم يظهر أي خيط يقود لسيسلي.

«المزيد من الشاي أنسة ميشل؟».

ابتسمت وهزرت رأسي قائلة: «لا، أشكرك جزيلًا سيدة بايلي. أعتقد... أظن أن عليّ الذهاب إلى العمل الآن».

عند عودتي إلى الجهة الأمامية من المبنى، انسحبت من مكنتي إلى غرفة الدكتور راجوستين، وأخبرت جودي ألا يسمح لشيء بإزعاجي. عادةً ما حصلت على قيلولتي في مكتب الدكتور راجوستين خلال النهار، بعد أن أفضي الليلة برمتها في مهام الأخت الراهبة. من محيا جودي، الذي تجاهلته، أعتقد أنه ظني سأقضي ساعات قليلة مستلقية على أريكة الدكتور راجوستين المريحة. هذا ما تمنيت أن يظن، هو والخدم الآخرون.

تضم غرفة الدكتور راجوستين، بغض النظر عن الأريكة -السابق ذكرها- في مواجهة المدفأة، مكتباً فخماً إلى حد ما وضعته ليكون مكتباً للشخصية الوهمية، ومقاعد جلدية وثيرة لعملائه، وسجادة تركية بديعة التطريز. بين النوافذ مُحكمة الغلق وضعت رف كتب مرتفعاً، كما كست أرفف الكتب الجدران الثلاثة الأخرى، تفصل بينها شمعدانات الغاز الطويلة المقابلة للمرايا (لتعكس الضوء). هذا الكم الهائل من الكتب تركه المستأجر السابق الذي عمل -كما يدعي- وسيطاً روحياً.

بعد أن أغلقت الباب من الداخل، وأحكمت إغلاق الستائر السميكة لمزيد من الخصوصية. أشعلت الغاز ليضيء الثريا، واتجهت نحو الرف الأول المعلق على الحائط الداخلي. هناك مددت يدي خلف مجلد لمقالات بابا الفاتيكان، وضغطت على مزلاج صامت، ليدفع حافة الكتب نحوي. ضغطت بأطراف أصابعي، دون أن يصدر صوت تقريباً -لأن المفصلات كانت مغمورة بالزيت- تأرجح الرف بأكمله وانفرج كما الباب ليكشف عن غرفة صغيرة خلفه.

كُنت أكيدة أن في تلك المساحة الصغيرة خبأ الوسيط الروحاني إنجازاته.

لكنني مع ذلك استخدمتها لأخبي أشياء أخرى. أشياء أحتاجها الآن.

بغاية الولوج إلى مقر إقامة البارون، لا يمكنني الذهاب بصفتي إيفي ميشل. أنا بحاجة لإحداث فارق في مظهري.

أشعلت شمعة. ثم، وأنا أرتجف من البرد -لأن المكان خلا من مدفأة- نزعت عني ثوب إيفي ميشل الزاهي الرخيص المصنوع من قماش البولين، وكذلك البروش المميز الذي ترتديه دوماً - لغاية ما. هذا البروش في ظاهره بدا حلية تُزين ثوبي، لكنه في الحقيقة كان يشد سلاحي إلى أعلى. وأنا أزيل البروش سحبت بروية الخنجر من المشد، ناظرة بإعجاب لنصله اللامع النحيف الحاد قبل وضعه جانباً.

نزعت كذلك شعر إيفي ميشل المستعار، والأقراط، وخلافه، حتى تخلصت من كل ثيابي عدا ملابسي الداخلية التي كان أهم عناصرها -مما يثير السخرية- المشد.

بالنسبة لي، لم يفرض المشد قيوداً عليّ، بل مثل الحرية التي منحها لي موفرًا الدفاع والتمويه والإمدادات. بصرف النظر عن تغليفه لخنجري، وفر لي المشد مخزناً (حيث أخفيت العديد من العناصر المفيدة، من بينها ثروة صغيرة من الأوراق المالية)، كما ساعدنا، علاوة على ضاغط الأرداف، في الحصول على مظهر مختلف تماماً عن إينولا هولمز.

تجردت من ثيابي عدا التنورة، والبطانات الداخلية، وانحنيت على الحوض لأحني الحمرة التي صبغت بها شفتي. تجهمت لأن الماء الذي احتفظت به في الخزان تجمد من البرد، ثم نظرت إلى المرأة. رمقت وجهي الطويل الشاحب الهزيل، وشعري البني الباهت.

الشعر كان معضلة. لآتحول لامرأة عليّ أن أصففه إلى أعلى. الفتيات يرتدين الأثواب القصيرة ويحافظن على شعورهن طويلة، أما النساء فعليهن ارتداء الأثواب الطويلة وتصفيف شعورهن إلى «أعلى». على الرغم من أن أغلب جسد المرأة النبيلة يجب أن يُغطى خلال النهار، لكن يبدو أن أذنيها لا بد أن تكون عارية دوماً.

اليوم أردت أن أظهر بمظهر سيدة نبيلة. لكن أولئك السيدات يملكن الخادמות اللاتي تساعدن في تصنيف شعورهن، وأنا لا أملك واحدة.

لن أكبد القارئ الرقيق عناء قص تفاصيل تلك المعاناة. يكفي أن أقول أنني بعد ساعة تقريباً خرجت امرأة من الغرفة الصغيرة، شعرها مصفف لأعلى - وأغلبه مُجَباً أسفل قبعة ساحرة. ارتديت فستاناً نهاريّاً رمادياً مصنوعاً خصيصاً من أجود الأصواف، تصميمه متحفظ ومحتشم. وبلى، لم أتخل عن البروش يُرصع مقدمة الفستان، كان بروشاً بيضاوياً جديداً مصنوعاً من اللؤلؤ الحر. هذه المرة كنت أملك داخل المشد أكثر من خنجر.

ارتديت معطفاً بديعاً من الفرو، ثم أغلقت «غرفة الملابس» وأخفيتها. دنوت من رف آخر للكتب - ذلك القريب من الجدار الخارجي - مددت يدي خلف مجلد آخر تلاعبت بمزلاج آخر مُجَباً، وتسلفت خارج مكتب الدكتور راجوستين من باب سري.

ملحوظة المترجمة: علم فِراسة الدماغ، هو علمٌ زائف قديم يدعي القدرة على قراءة العقول.

الفصل الخامس

المستأجر السابق الماهر أحسن صنع هذا المخرج. خرجت من بين الأجمة الخضراء النابتة في المساحة الضيقة بين المنازل. من هناك كان بمقدوري أن أتحرك نحو الشارع راضية البال أن أحدًا لم يرني أغادر، حتى أن عيون السيدة فيتزسيمونس الحادة لم تبصرني، ربما هي منشغلة بالحديث عني مع السيدة بايلي الآن قائلة: يا للمسكينة، لا تملك سوى أنف طويل وذقن كبيرة، يمكن لامرأة أن تُحمن بسهولة: إذا تزوج أي رجل من تلك الفتاة سيشعر أنه خدع بلا شك.

إن التعامل مع شعري البائس -كالح اللون كوحل المستنقع، الأشعث كتعرجات النباتات السامة- وضعني في موقف فكاهي ساخر. بمجرد أن دلفت بأمان إلى سيارة أجرة رباعية العجلات، أخرجت من جيبي ورقة وقلم رصاص وبدأت أرسم بسرعة ووقاحة رسمًا للسيدة فيتزسيمونس والسيدة بايلي بغطاء رأسيهما المنزلي قديم الطراز وهما جالستان تتسامران، وعيونها الفضولية الماكرة، وأفواههم التي تتحرك في سرعة. في الواقع كانتا أشبه بزواج من السلاحف.

ثم، بعد أن تخلصت من التوتر، رسمت بهدوء أكبر صورة لسيدة نبيلة شابة ترتدي معطفًا من الفرو وقبعة مخملية لها ريش ناعم. تحت غطاء الرأس الأنيق ذلك، بدت ضعيفة النظر، لأن لا توجد سيدة نبيلة، مهما كان ضعف نظرها، سترتدي عيونات. رسمتها بلطف حتى اكتملت، وبدت شبه عاجزة، سارت برأس وأكتاف منحنية، شاحبة للغاية رغم ثيابها الجميلة.

إنها زوجة الدكتور راجوستين الخجول الشابة، السيدة راجوستين. كُنت أرسم تلك الشخصية لأذكر نفسي بمن سأكون اليوم.

حين اعترتني الرغبة في الرسم، كان من الممكن أن أرسم إيفي ميشل إذا شئت، أو أمي، أو شارلوك، أو مايكروفت، أو حتى أي شخص عرفته عدا إينولا هولمز. لم أستطع قط أن أرسم ذاتي الحقيقية على الورق. أمر غريب.

حملتني سيارة الأجرة إلى شارع عصري. وبينما توقفت السيارة عن الحركة، كُنت أدس أوراق في جيبي. اطلع شارلوك هولمز على رسمي في مناسبتين، وعليّ أن أحرص على عدم كشف غطائي بترك أي رسمة من رسومي تظهر للعلن. حين أعود إلى مسكني سأحرق تلك الأوراق.

انتظرت عند الزاوية، ويديا مدسوستان في جيبي، حتى غادرت سيارة الأجرة. كما ترون، رغم أن الأرامل فقط من يرتدين الأرداف الصناعية -شكرًا للرب أن صيحتهم الكثيبة المنفرة بدت تتلاشى - مع ذلك فأني امرأة نبيلة عليها أن تتبع خطاهم. تدلى ذيل عباءتي الطويلة، وتنورتي الأطول، على الأرض، يتحركان فوق الحصى المتجمدة، ويشيران للمرتبة الاجتماعية لصاحبتها. وقفت -كما قلت- حتى رحلت العربة. أعرف أن الدكتور راجوستين كان ليبنتاع لزوجته الشابة عربة خاصة، لكن هناك حدودًا لتمويل أمي المادي مهما بلغ كرمها.

لحسن الحظ، كُنت بالكاد في حاجة للسيدة راجوستين. ولحسن الحظ البالغ، حافظت على وجهي متجهًا لهذا الغرض. يمكن لإيفي ميشل أن تحتبى خلف الشعر المستعار الأحمر، والحلي الرخيصة، لكن لا يمكن لسيدة نبيلة أن تفعل ذلك.

أثناء وقفتي في الزاوية مر نيبلان يرتديان القبعات العالية، ورمقاني بنظرات استنكار: «زوجتي تبقى في المنزل، حيث تنتمي. لا تفعل هذا الهراء»، هكذا همس أحدهما لرفيقه. «تلك السيدة الشابة ستجلب المتاعب

والأهوال على نفسها، وهي تتجول هكذا وحيدة». قالها الآخر مؤمناً على كلام رفيقه وأكمل: «وستكون متاعبها من فعل يديها». تجاهلتها، وحاولت ألا أسمح لتعليقاتها بتعكير صفو يومي، فهو يوم عكر بما يكفي بالفعل. رُغم أن الساعة بالكاد تخطت فترة ما بعد الظهر، صعد العامل المسئول عن إضاءة المشاعل الليلية سلمه ليضيء مشاعل الشارع. كانت سماء لندن كثيفة الضباب والدخان والسخام مما حولها في فترة الظهر ليل دامس.

أعلى أسطح المنازل كافة في المدينة، بدت المداخن كشموع داكنة تُرسل الدخان الفاحم. مر عمال وخادمتان بجوارى يسعلون، سيموت أحدهم اليوم جراء النهاب الشعب الهوائية.

دنت مني فتاة صغيرة شعثاء تحمل مكنسة، وأمأت لها فشرعت تزيح من طريقي أكوام الوسخ والسخام والحجر المغبر والوحل وفضلات الأحصنة التي تكدست في الشارع كالعادة.

تبعث الفتاة عابرة الشارع نحو الجهة الأخرى، منحنتها بقشيشاً سخياً - بنساً واحداً - ثم، تقدمت نحو وجهتي «بتمايل» وذيل ثوبي يتبعني. كانت وجهتي هي مقر إقامة السير أوستاس أليستر.

أمام البوابة الأمامية العملاقة، وجدت مقبضاً نحاسياً كبيراً نُحت على هيئة رأس أسد. قرعته على استحياء يلائم شخصية السيدة راجوستين.

فتحت الباب خادمة بهية الطلة ترتدي الأسود الملائم لفترة ما بعد الظهر، وخلفها مباشرة وقف رئيس خدم له نفس الوجهة.

قال رئيس الخدم ببرود يضاهاى برودة الشتاء: «حضرتها لا تستقبل الزوار». قُلت بنبرة تحمل أقصى ما أستطيع من تهذب: «هل السيدة متوعدة؟ إذا سمحت أن ترسل لها تلك البطاقة وتبلغها تعاطفي».

بوقاحة مد صينية فضية وضعت فوقها بطاقة الدكتور راجوستين زوجي. ثم تمت: «لقد أرسلت العربة إلى المنزل، حرصت على سرية الزيارة». قُلت ذلك لأفسر غياب أي خدم يرافقني. دلفت إلى الداخل، لأنهم بالكاد يمكنهم أن يبقوا سيدة حسنة المظهر مثلي تقف متجمدة على عتبة المنزل، وأضفت: «سأدفع نفسي بجوار المدفأة».

تعاملت الخادمة بلطف كافٍ فنزعت عني عباءتي، ولكنها لم تأخذ القبعة لأن شعر المرأة بمجرد تصفيفه جيداً لا يمكن فصله عن قبعتها. بدوت وأنا جالسة في الداخل مرتدية قبعتي وقفازاتي سخيفة تماماً مثل نساء الطبقة العليا.

مع ذلك، لم أعرف وأنا جالسة دون جدوى في الغرفة الكبيرة إذا كانت الليدي ثيودورا - هذا اسم الزوجة: ثيودورا وعرفت الاسم حين بحثت في دليل العناوين عن البارون السير أليستير أوستاس - ستتنازل لتقابلني أم لا. ربما تعتقد أن حضوري غير المتوقع قشة تتعلق بها يد الغريق. وربما، بناءً على درجة اليأس الذي يُثقل كبرياءها، تعتقد أنها القشة الأخيرة.

حاولت تخيل الحديث الدائر في الطابق العلوي، جُلّ ما تمنيته أن تفهم الليدي ما تعنيه مهنة الدكتور راجوستين، وأن يكون رئيس الخدم قد انبهر بمظهري وتصرفاتي.

ظهر رئيس الخدم عند باب الغرفة، وبينما بدا ممتعضاً للغاية، أخبرني: «الليدي ثيودورا ليست في ثياب تليق لاستقبالك في الغرفة الصباحية، ولكنها تتساءل إذا كنت تهتمين بالصعود إلى مهجعها لعدة دقائق».

حدث تماماً ما تمنيته. إلا أنني سأتعامل الآن بأقصى درجات الحساسية.

تبعث رئيس الخدم إلى الطابق العلوي، سمعت أصواتاً شابة صادرة من الحضانة في ذلك الطابق، حيث المربية أو ربما المعلمة، تحاول أن تهذب أبناء أليستر. وفقاً لمعلوماتي فإن الليدي سيسلي تملك على الأقل سبعة إخوة وأخوات.

لهذا أصابني العجب من مظهر الليدي ثيودورا اليافع. أو ربما كان ذلك بسبب مزيج من ملامحها الحزينة وثيابها الرقيقة. أحدث الصيحات الفساتين من تصميم كايت جرينواي سمحت للسيدات ألا يرتدين المشد وهن يستقبلن (السيدات فقط!) في غرفهن الشخصية. بدت الليدي ثيودورا خلافة في الثوب المريح، مرتفع الخصر، ومنحها الثوب لمحة طفولية، لكنت سأبدو أشبه بطائر اللقلق في ثوب كذلك.

لم تلتفت إلي فور ولوجي من الباب. كانت بصحبتها خادمت يتحركن بخفة، معتنيات بشعرها المجدد الطويل البني المائل إلى الحمرة، استقرت على كرسي يواجه طاولة التبرج، تصبغ وجهها بالبودرة، وهكذا رأيتها لأول مرة في انعكاس المرأة.

تلاقت نظراتنا عبر الزجاج الداكن. وأشحت بوجهي بعيداً متذكرة أن أحافظ على تهذي. أنا أكيدة أنها حملت بي طويلاً بينما وقفت أنا أتجول بنظراتي كسائح في كاتدرائية أوروبية. في الواقع كانت الغرفة أشبه بغرفة أمي في منزلنا، مضيئة وهواؤها منعش، نوافذها على الطريقة اليابانية، وأثاثها صنّع وصُمم على الطراز الشرقي. لم يضاهاه في الحجم، لكن، بالتأكيد، في الدهشة والإعجاب. السذاجة، هكذا وصفت نفسي. تزوجت في سن مبكرة، بلهاء، وخاوية الفكر. لا أمثل تهديداً لأي كان. «هذا يكفي». قالتها الليدي ثيودورا وأزاحت أداة التمشيط مشيرة للخدم بيدها أن ينصرفن. «سيدة راجوستين، أرجوك تفضلي بالجلوس».

جلست على حافة المقعد. «سيدتي، إمم، أعتذر عن التطفل عليك بتلك الطريقة، إمم، أقصد بطريقة غير لائقة، ودون تقديم يليق، أيتها الليدي أليستر في صعوبة مثل تلك...»، سمحت لنفسي أن أتمم بكلمات بالكاد تُسمع لأغطي على ما قلته، لأنني -الغريبة- لا ينبغي أن أعرف أنها تمر بوقت عصيب. على الرغم من تمام علمها بأني أعرف، وإلا لم سأتى إلى هنا؟

جنبنتي عناء المزيد من التظاهر وقالت: «سيدة راجوستين، أرسلك زوجك؟». رفعت وجهي لأقابل وجه الليدي ثيودورا المليح، بل الجميل، إنها امرأة جميلة. لها فك مربع وفم عريض، لكن تملك أعيناً خلافة، ومُحياً مميّزاً وحساساً. أتخيل أنها سيدة مجتمع ليس من السهل اقتيادها. سيدة يمكنها التعامل لأقصى درجة مع التحايل والخداع والتلميحات. أمر عصيب بحق وحده ما سيقودها لهذا الضيق. تعثرت في كلامي قائلة: «إمم، بلى. شعر الدكتور راجوستين أنه من غير اللائق أن... أن يغامر بالمجيء هنا بنفسه، أنت تعرفين...».

توقفت كلماتي مجدداً لتسمح لها لتختار الحديث عما يعرفه الجميع وينكره، أو تمتنع. تشنجت الليدي ثيودورا لبرهة قبل أن تومئ. عادة ما تراءى لي أن المرأة المتباهية الجميلة تجد صداقة حسنة مع المرأة الهادئة المتواضعة. قالت بصوت خفيض: «بلى. ابنتي، ليدي سيسلي، يبدو أنها -الحقيقة أنها- أنا، أو نحن، والداها، لا نعرف أين هي. زوجك يشتغل في العثور على الأشخاص المفقودين، هل أخطأت في ذلك؟».

«لا، على الإطلاق».

«أيعرض خدماته؟».

«إذا تشائين. لكنه لا يسعى لأي مكافأة يا سيدتي».

«حقاً؟».

لم تصدق ما قلت، ظنت أن الدكتور راجوستين على الأرجح هو انتهازي مخز، لكن في الوقت نفسه قالت: «أنا يائسة يا سيدة راجوستين». رمقت وجهي وهي تتكلم، متحكمة بنظراتها، مع ذلك شعرت بها ترتجف. «لم تصلنا أي أخبار من ابنتي - ولا خبر! - من أسبوع، ويبدو أن السلطات عاجزة تمامًا. بالتأكيد لا يمكن أن يُخفق زوجك أكثر من إخفاقاتهم. بلا شك أنا أتصرف بحماقة، لأنني مأمورة ألا أُعَيِّن محققًا خاصًا، لكن بالكاد يمكنهم لومي لأنك من جنّت إليّ. لا يمكنني تجاهل أن العناية الإلهية ربما من أرسلتك إلى هنا، حتى لو كانت لأغراض شخصية - لا أقصدك، بل أقصد زوجك - ولا أقصد بقولي أي إهانة».

«أؤكد لك، ليدي ثيودورا تفهمي الكامل لك». سمحت لنظرتي الخجولة المعتذرة أن تتجه صوبها. «تواجدي هنا منافٍ للمنطق والعقل، لكن الأزواج دومًا لهم طريقتهم».

لا يمكنني أن أبدي تعاطفًا أكبر من ذلك معها. لقد مالت نحوي بالفعل وصافحت يدي المقفزة: «سيدة راجوستين! أصبت! الرجال يديرون كل شيء، مع ذلك هم مخطئون بشدة! في أعماق قلبي أعرف أن عزيزتي سيسلي لم.. لن تذهب إلى أي مكان يدعون أنها ذهبت إليه. وحقيقة أنهم لم يعثروا عليها بعد تؤكد لي صواب ظني. مع ذلك هم يصرون على تصديق مزاعمهم. أمر مثير للاشمئزاز. حتى زوجي...».

أومأت، وأنا أفكر في إدارة دفعة الحديث دون، كما أمل، أن تلاحظ: «هل زوجك يكبرك بأعوام كثيرة أيتها الليدي ثيودورا؟».

«عدة سنوات فقط. لكن... هل يكبرك الدكتور راجوستين بأعوام كثيرة؟».

«أجل. أنا زوجته الثالثة. في الحقيقة لست أكبر...».

أكملت نيابة عني هامسة. «أكبر من ابنتي الليدي سيسلي».

«أجل. أصبت. لذا كنت أفكر...».

«فيم تفكرين؟».

بالفعل بدأنا نرتب لمؤامرتنا، تقاربت جلستنا حتى كادت ركبانا تماسان، وتشبثت بيديّ.

«بصفتي في عمر مقارب لليدي سيسلي، ربما سألاحظ أمرًا لم يلحظه محققو الشرطة».

«كم أرجو أن تفعلي، سيدة راجوستين! أنا أتوق لفعل شيء.. لكن ماذا؟ وكيف؟».

كدت أنسى الدور الذي أؤديه، لكنني ذكرته وترددت، تعثرت كلماتي قبل أن أقول: «حسنًا، علينا أن نبدأ من مكان ما. إذا من الممكن بأي شكل أيتها الليدي ثيودورا، هل يمكنني أن أفحص غرفة الليدي سيسلي؟».

الفصل السادس

أولاً - بلا شك - احتسينا الشاي. ثم توطدت الصداقة والتواطؤ بيننا على بخار المشروب الدافئ وشطائر المربي. سألت الليدي ثيودورا حضور خادمة الليدي سيسلي الشخصية، التي اصطحبتني إلى غرف الليدي سيسلي.

المعتاد أن يحظى المرء بمهجع يضم سريرًا وخزانة ملابس، ويلحق بالمهجع غرفة لاستقبال الخدم والأصدقاء. اتجهت مباشرة لمهجع الليدي سيسلي، الذي بدا لي بديعًا من الوهلة الأولى، يضم سريرًا له ظهر مرتفع نُحِت عليه رسومات رائعة، أظن أنه يناسب شابة أقل عمرًا. ربما والدتها حرصت أن تبقىها طفلة! في زاوية وضعت دمية المنزل المعتادة، لتزيد من الفخر بالأسرة، ولكن لم يبد أن الليدي سيسلي راقت لها تلك الأمور تمامًا مثلي. القطع الصينية والخزفية الباهظة وضعت مُهملة على الأرفف، مغبرة بالتراب حتى داخل حافظاتها الزجاجية. كما ظننت، وأنا أحملق في «الأجراس» الزجاجية الموضوعة على رف الموقد، أنها استمتعت بموهبة مزج الشمع الملون مع الورد.

سألت الخادمة لتأكد من ظني: «هل الليدي سيسلي من صنعت هذا؟».

«بلى، سيدتي. كانت.. أقصد سيدتي الصغيرة موهوبة في الصناعات اليدوية».

«الورود» الشمعية بدت أشبه بفقاعة لا شكل محدد لها.

عُلِّقت على الحائط لوحات صغيرة مؤطرة: امرأة عجوز تحوك بجوار المدفأة، خادمة ريفية تحمل سلة من البيض، طفل بوجنتين متوردتين يحمل جروًا... إلخ.

«هل الليدي سيسلي من رسمت تلك اللوحات؟».

«أجل، سيدتي، إنها فنانة بحق».

أمر يستحق النقاش، لكنني أوامت. اللوحات، مثل الورد الشمعي، بدت زاهية ولكن غير متقنة، خطوطها وتشكيلاتها مشوشة بصورة كبيرة.

أضافت الخادمة: «الليدي سيسلي كانت تحظى بدروس لتعليم طبقات الصوت أيضًا، وكذلك الباليه. هي الأكثر إنجازًا في كل ما تتعلمه».

في قول آخر: ملائمة لسوق الزواج، كما أراد أخواري أن أكون: أتقن الغناء، الرقص، الاقتباسات الفرنسية، وزخرفة دقيقة لأي غرفة رسم أرستقراطية.

تفكرت فيما تشعر به الليدي سيسلي حول «إنجازاتها». علاوة على السرير المزخرف، ضم المهجع خزانة للملابس المطوية لها نفس الزخارف، وخزانة أخرى لتعليق الملابس، ومغسلة. في غرفة تبديل الثياب هناك «المجموعة» المعتادة: حوامل للثياب، مشط وفرشاة نُقِشا بالفضة، مرآة يد، زجاجات مياه للمرحاض، ومنظف شعر. ألقيت نظرة داخل خزانة الملابس، أفحص الثياب المعتادة لأنسة أرستقراطية: أثوابًا صباحية، أثوابًا لفترة ما بعد الظهر، فساتين زيارة، ثوب الأحد، فساتين سهرة، ثيابًا تصلح لامتطاء الخيل، زيًا لركوب الدراجات، زيًا للعب التنس، وهكذا.

«هل هناك معلومات أكيدة عما كانت ترتديه الليدي سيسلي يوم رحيلها؟».

«أجل، سيدتي. يبدو أنها...» احمرت الخادمة خجلًا. «رحلت في ملابس النوم. ثيابها كاملة سيدتي».

«واضح. هل نامت في سريرها؟».

«أجل، سيدتي».

هناك نافذتان، واحدة تطل على الجزء الخلفي من المنزل والأخرى تطل على الجزء الأمامي: «أي من النافذتين وُضع عليها السلم الخشبي؟».

أشارت الخادمة إلى النافذة المطلّة على الجزء الخلفي من المنزل، البعيدة عن الشارع الرئيسي. «هل وُجدت النافذة مُشرعة؟».

«أجل، سيدتي».

«هل فتحت أي نوافذ أو أبواب في الطابق السفلي؟».

«لا، سيدتي. أبواب الطابق السفلي كانت مُغلقة والنوافذ محكمة الغلق».

«لكن تلك النوافذ لم تكن محكمة الغلق، أليس كذلك؟».

«أجل، سيدتي». بدت الخادمة مشفقة على جهلي فأضافت: «لِيُحسنوا صحتهم، تحرص أفراد عائلة البارونة كافة على النوم تاركين النوافذ مرفوعة قليلاً يا سيدتي، في الصيف والشتاء».

لم أتعجب، فأنا نفسي نشأت على تلك العادة. فالتهوية مُحسن من قدرة المرء على الهضم وتقوي مناعته ضد الأمراض، وتحميه من التراخي. لذلك، حتى خلال الطقس الأكثر برودة، بل قادرة على تجميد المرء، يجب أن نترك النافذة مشرعة بمقدار إنش أو يزيد.

«لذا من الممكن أن يكون أحد قد رفع النافذة من الخارج».

«أجل، سيدتي».

«وهل تُركت مفتوحة على مصراعها والسلم مستند إليها؟».

«أجل، سيدتي».

عُدت إلى مخدع الليدي سيسلي، غرفة فسيحة مؤثثة بالرايا والكراسي والمقاعد الوثيرة، ولوحة لموقد مطرزة بالكروشييه (بلا شك واحدة من إنجازات الليدي سيسلي)، وأصص السرخس موضوعة على حافة النافذة، وعند مصدر الضوء النافذ من النافذة وضع كرسي لليدي سيسلي وحامل لوحات.

بالإضافة لمكتب قابل للطبي، تراءى لي أنه الأكثر أهمية في هذا الوقت.

فتحت المكتب وسألت: «كما فهمت، قد عُثر على بعض الرسائل هنا؟».

«أجل، سيدتي. أخذتها الشرطة».

«هل بحثوا عن أي وثائق أخرى في هذا المكتب؟».

«لا، سيدتي!». بدت الخادمة مصدومة ثم أضافت: «الليدي ثيودورا هي من عثرت على الرسائل وأخذتها إلى الضباط الذين مكثوا في الطابق السفلي».

أي أن الليدي لم تسمح لأي محقق بالدخول إلى تلك الغرفة.

قُلْتُ مؤمنة على حديثها وأنا أجلس على المكتب لألقي نظرة أكثر تفحصاً: «هكذا إذاً».

تمنيت لو حظيت بفرصة الاطلاع على الرسائل بنفسني، ليس فقط لأعرف فحواها ولكن لربما عثرت على أي دليل قد أغفلته سكوتلانديارد.

سألت لتأكد من وجود شفرة: «هل كانت طوابع البريد موضوعة بصورة غريبة، أو معكوسة؟».

يبدو أنني فاجأت الخادمة مجدداً فقالت: «لم تصل الرسائل عبر البريد سيدتي!». ربما قد اطلع رئيس الخدم

الرائع بالفعل على كل المراسلات البريدية. «إذاً كيف وصلت؟». بالتأكيد أحدهم أوصلها، لكن من؟

«نحن... نحن لا نعرف، سيدتي».

وصلت بتواطؤ أحد من الخدم. ربما تلك الخادمة بالتحديد، لي لي. وقد قُتل هذا الخيط بحثاً في التحقيق.

شغل سطح المكتب مجموعة كتابة رائعة، زجاجة حبر وأقلام حبرية، وحاملة أقلام، وشفرة حادة لفتح الرسائل. في الأدراج، بجوار ورق النشاف المعتاد ومساحات القلم، عثرت على ختم الليدي سيسلي، والعديد من شمع الأختام بألوان مختلفة: الأحمر لمراسلات العمل، الأزرق لرسائل الغرام، الرمادي للصدقة، الأحمر للتعبير عن الغيرة، الأخضر لتشجيع حبيب حَجَل، البنفسجي للمواساة. وحده الشمع الرمادي كان الأكثر استهلاكًا.

عثرت في الأدراج أيضًا على دفتر العناوين الخاص بالليدي سيسلي، محفوظ في حالة جيدة وكتب داخله بخط دقيق لأنسة أرستقراطية. كما وجدت أوراقا أخرى متنوعة: قوائم تسوق، تذكيرات بالتزامات اجتماعية، كلمات وعظ أخلاقي، وغيرها.

الأكثر أهمية كان عثوري على كومة من المذكرات.

«هل كتبت الليدي سيسلي مذكراتها؟». كانت المذكرات مكتوبة في مغلفات مجلدة بالحرير ولها أقفال صغيرة.

«أجل، سيدتي».

لكن الأقفال مكسورة: «هل ألقت الشرطة نظرة على تلك المذكرات؟».

«لا، سيدتي!».

«إذا الليدي ثيودورا؟».

«أجل، سيدتي. في المرأة».

«أستميتك عذرًا؟».

حملت واحدة من المجلدات وأنا أتحدث، فتحت، وصدمني خط اليد المكتوب داخله. كبير، طفولي، أصم، مائل إلى اليسار - بالكاد يشابه خط اليد في دفتر العناوين والأوراق الأخرى - لم يبد الأمر منطقيًا لي حتى أدركت أن الكلام كتب من اليمين إلى اليسار، معكوسة الحروف بحيث بدا حرف b هو حرف d. علقت: «هذا غريب جدًا!».

نهضت وحملت المذكرات مفتوحة لتواجه المرأة، وفي انعكاسها تمكنت من قراءة ما كتب بسهولة:

الطقس بالغ البرودة. أرتمي على الأقل تسع قطع داخلية.

بدا الأمر لا يستحق عناء تشفير تلك الكلمات.

«لم كتبت بتلك الطريقة؟».

«لا أعرف، سيدتي».

«هل رأيتها من قبل وهي تكتب؟».

«لا، سيدتي».

بالطبع لم تر شيئًا، مثلها كمثل أي خادمة وفيه.

هناك ثمانية مجلدات، جميعها كتبت بذات الطريقة العجيبة، دون تغير على مر السنين. استقررت على قراءة أحدث اليوميات، الوحيدة التي داخلها صفحات بيضاء في... في الحقيقة الصفحات الفارغة في بدايتها، لأن المذكرات كانت تكتب من الخلف إلى الأمام. انتقلت للصفحة الأخيرة (الأولى)، ورفعت المذكرات أمام المرأة لأقرأ.

الثاني من يناير - أشعر بضجر بالغ. كيف يمكن لأحد أن يتحدث عن قرارات العام الجديد حين لا يبدو أي قدر من النوايا الحسنة قادرًا على تخفيف المعاناة في هذا العالم؟ وكيف يمكنهم نشر العطور وإقامة

الحفلات، يرتدين الحلي وأحذية الرقص، بينما الشوارع تعج بأيتام وأطفال معدمين حفاة الأقدام، بالكاد يملكون أسماً لا تغطي أجسادهم؟ آباء عاجزون عن العثور على عمل، وأمهات تعمل في الطواحين لمدة ست عشرة ساعة يومياً؟ بينما أنا، لكي أقابل الملكة، عليّ التدرّب لأسير بظهري لمدة تسعة أقدام دون تعثر؟ حياتي لا جدوى لها، ولا قيمة، حياة خالية من أي معنى.

تلك لا تشبه كثيراً مشاعر امرأة شابة على وشك الهرب مع حبيبها السري! بعقل مثقل بالتخمينات، سمحت لي لي أن تُعيد ترتيب الأشياء داخل المكتب، بينما قطعت الغرفة لأرى أين اعتادت الليدي سيسلي أن ترسم مؤخراً.

عثرت على لوحة صغيرة غير مكتملة لمنظر طبيعي ريفي، تحولت بالفعل لكتلة غير واضحة المعالم لألوان متداخلة. أعلى مسند الرسم وضعت ألوان الباستيل الخاصة بها. مهشمة. الوردي، الخوخي، الأخضر الفاتح، الأزرق المائي، الأزرق السماوي، الخزامي، البني الخفيف، جميعها مكسورة ومفتتة لقطع صغيرة.

أمر مثير للاهتمام.

فتحت الدرج الملحق بالمسند ووجدت ما يمكن للإنسان أن يتوقعه: أقلام رصاص، ممحاة، حبر هندي، وأقلام رسم لا تزال داخل علبتها، وأقلام فحم ليست في علبتها. بالأحرى بقايا أقلام فحم مشدبة الحافة، لوثت محتويات الدرج كافة بمسحوق أسود لتتشابه مع سماء مدينة لندن.

كميات من الفحم في كل مكان.

مستهلك معظمها.

رמقت ألوان الباستيل على حافة المسند، لم أر الأسود في أي مكان.

حولت نظري للجدران، لم أقابل أي لوحة استخدم فيها الفحم.

أغلقت الدرج واتجهت إلى حيث تُنظف الخادمة المكتب. سألتها: «لي لي، أي لوحات الليدي سيسلي التي رسمتها بالفحم؟».

«الفحم؟». كانت تحرك أكوام الأوراق التي تخص الليدي من جهة المكتب إلى الجهة الأخرى دون أن تنظر إلي. «أنا لا أعرف بتاتاً ما تقصدينه يا سيدتي».

كُنْتُ متأكدة من صدقها، ولكن لم أر فائدة من قول ذلك. أخذت حينها أتخيل أين يمكنني أن أضع لوحات لا أريد لأحد سواي أن يراها، عُدْتُ إلى مهجع الليدي وبدأت أفتش خلف الأثاث.

خلف خزانتي الملابس عثرت على أكوام من الورق المقوى الضخم مستندة إلى الحائط.

ناديت: «لي لي، من الأفضل أن تساعدني في تحريك تلك الأغراض، إلا إذا شئت أن أخرجها».

بصمت وتجهم، جاءت الفتاة وساعدتني في دفع الأثاث عدة إنشآت بعيداً عن الحائط لأتمكن من الوصول خلفه. سحبت الأوراق من طرفها، وحملتها إلى الغرفة الأخرى لأفحصها في الضوء.

وضعت واحدة تلو أخرى على مسند الرسم فبدت أصغر حجماً.

ليس فقط الحجم. بل.. بالكاد أعرف كيف أفسر ذلك. نمطهم، ربما يمكنني استخدام تلك اللفظة. كانوا أكثر اختلافاً عن اللوحات الضبابية الزاهية المؤطرة على الجدران. لوحات الفحم تلك رُسمت قاتمة، حادة، ومباشرة، ظلالتها غير رقيقة بشكل صادم.

لكن موضوعها يصدّم أكثر.

أطفال هزيلة قدرة تلهو بمزراب ماء أسفل جبل علقت عليه سمكات ميتة. نساء لا يرتدين القبعات يقفن أسفل أعمدة الإنارة ليلاً لإغواء المارة. رجل غير حليق يلتقط من الأرض أعقاب السجائر. عائلة إيطالية تغني نظير بنسات قليلة. فتى عاري القدم منحني على الأرض ليُلمع حذاء رجل نبيل. امرأة ترتدي أسماًلاً رثة تحمل طفلاً عليلاً «تبيع» علب الكبريت للمنازل.

وغيرها من اللوحات.

أناس من شوارع لندن الأكثر فقراً. أناس رسموا بوضوح وثقة لدرجة لا تحوي قط باحتمالية رسمهم من الخيال. هناك شخص ولد ليكون فناً قد رأى تلك المناظر على الحقيقة ورسمها. أعرف هذا الرابط الملتهب بين العين والقلب واليد. فنان ملهم قد رأى أولئك البشر.

نظر إليهم بشغف.

كما نظرت للوحات بشغف.

عدد من اللوحات كان لنساء عجائز يتضورن جوعاً على عتبات الإصلاحيات. أشد الناس فقراً، أولئك «الزاحفون» الذين بالكاد يجدون القوة الكافية ليتحركوا.

أعرفهم.

ومن الواضح أن الليدي سيسلي تشاركني نفس المعرفة.

لكن، كيف؟

الفصل السابع

أخبرت الليدي ثيودورا: «الدكتور راجوستين سيتواصل معك مباشرة ليخبرك عن رأيه في الأمر برمته». من حسن الحظ أن «الدكتور راجوستين» هو المنوط به توفير الأفكار، لأن أفكاره كانت في حالة اضطراب أسوأ من خيوط متداخلة داخل سلة غزل. من بين الخيوط المعقودة المتضافرة لم أمسك سوى خيط واحد، غير واضح، وهو إشارة جديدة إلى أن الليدي سيسلي لم تهرب. لو كانت مراسلاتها السرية مع ابن صاحب المتجر تطورت لعلاقة شغوفة، لكانت استخدمت قوس قزح من ألوان الشمع لتُغلق بها مراسلاتها عوضاً عن استخدام الرمادي. لا، كانت رسائلها رسائل صداقة.

لقد هربت، ليس في سبيل الحب، لكن في سبيل أمر آخر.

أمر استشعرت أن له علاقة بمذكراتها الغريبة، وطريقة كتابتها التي لا تُقرأ إلا في انعكاس المرآة.

أمر له علاقة -رغم أنني لم أتخيل العلاقة بالتحديد- باللوحات الفريدة المرسومة بأقلام الفحم.

تلك اللوحات كانت منافية لطبيعة السيدات النبيلات، ومحيرة، بسبب طريقة الرسم الجريئة وكذلك اختيار الموضوعات، وقد أعدتها إلى مكانها خلف قطع الأثاث دون أن أذكر أي شيء عنها لليدي ثيودورا، ليس الآن على الأقل. أما المذكرات، فأردت أخذها معي.

أكدت لليدي حين حظيت بفرصة الحديث معها على انفراد: «لن يطلع عليها أحد غيري». في غرفة الملابس كانت الليدي منشغلة مع أبنائها الصغار، صبيين وفتاة صغيرة تحلقوا حول مقعدها مثل الجراء، بينما اهتمت هي بفتاة رابعة، تفحص بعناية شعرها المشط، ونظافة أذنيها... إلخ. وجه الفتاة ذكرني كثيراً بوجه الليدي سيسلي الذي رأيته في اللوحات الفوتوغرافية التي أطلعتني عليها الليدي ثيودورا خلال احتسائنا الشاي. بالطبع، جميع الأبناء، ومنهم الليدي سيسلي، يشبهون كثيراً أمهم: فم عريض، وأعين خلاصة ذكية.

حين دلفت أشاحت الليدي ثيودورا لأبنائها الصغار ليذهبوا إلي مربيتهم، وسألتنني أن أجلس إلى جوارها. قُلت مفسرة طلبتي: «سأحرص بنفسي على قراءة المذكرات، وأطلع الدكتور راجوستين على أهم ما ورد فيها».

أجابت الليدي ثيودورا: «لقد اطلعت عليهم، ولم أعثر على شيء يبدو هاماً، لكن على أي حال، إذا في رأيك أن المذكرات ستساعد، هل ستحرصين أقصى الحرص عليهم؟».

أكدت لها أنني سأفعل. ثم ذكرت في الوقت الملائم أن أسألها عن أحدث لوحة شخصية لليدي سيسلي ليتمكن «الدكتور راجوستين» من معرفة ملامح الأنسة التي يبحث عنها. كما نسخت اسم ابن صاحب المتجر وعنوانه الذي كان يرسل الليدي سيسلي في حالة أن احتاج «الدكتور راجوستين» لاستجوابه.

قبيل مغادرتي احتضنتي الليدي ثيودورا، مقبلة وجنتي بفيض مشاعر غير متوقع.

لذلك شعرت بغم كبير، لكوني محتالة لا شرف لها، وأنا أستقل سيارة الأجرة عائدة إلى مكتب الدكتور راجوستين. فعل الدكتور راجوستين ذلك، فعل الدكتور راجوستين ذلك، يا لي من كاذبة. العثور على هذه الفتاة المفقودة هو.. مهمتي؟ فتاة هاربة في الرابعة عشرة تبدأ مهنتها؟ الحقيقة أن نصف خدم المنازل وعمال الطواحين في لندن من نفس عمري، أو أصغر، والحقيقة أيضاً أن في حالة ارتكاب أي منهم لجريمة سيُسجن ويُحاكم ويُشنق إلى جوار جاك السفاح -إذا عثرت عليه الشرطة يوماً ما- لكننا لا نملك أي حق، حتى الحق في النقود التي نجنيها، إلى أن نبلغ الحادية والعشرين. قانونياً، في عمر الرابعة عشرة أنا لم أوجد بعد. لذا من أظن نفسي بحق السماء -إينولا إيفي هولمز ميشل السيدة راجوستين- لأحول حياتي لتلك الخدعة البشعة؟

تلك كانت أفكارى وأنا أنسل عبر المدخل السري إلى غرفتي المغلقة حيث تحولت مرة أخرى لإيفي ميشل. تجمد تفكيرى طوال فترة ما بعد الظهر وحتى جن الليل، إلى أن عدت لمسكنى مع حاجيات الليدى سيسلي داخل طرد من الورق المقوى البنى لفته جيداً بحبل، لتبدو أغراضاً ابتعتها.

قدمت لي السيدة تابر وجبة من الرنجة المطبوخة واللفت - لا تسد الرمق - ثم صعدت إلى غرفتي، ارتديت جوارب دافئة، وثوب النوم، وجلست على مقعدي الوثير إلى جوار المدفأة وبمساعدة مرآة يد بدأت أقرأ أحدث مذكرات الليدى سيسلي.

لم يكن المحتوى هو ما يتوقعه المرء من ابنة بارونة. لم تكتب عن جولات الأحد في العربات الرياضية المفتوحة ذات العجلات الأربعة في هايد بارك، أو العطلات على شاطئ البحر، أو التسوق في شارع ريچنت، أو أحدث صيحات الموضة، ولا حتى ذكر حديث عن شراء فستان جديد. كما أنني لم أعثر على أي حديث عن مراسلاتها مع أصدقائها. كانت كلماتها مركبة للغاية:

... الكثير من اللغظ حول قانون الفقراء، «الفقراء المحتاجون» في مواجهة غير المحتاجين. تُعساء الحظ الذين يُعانون من عاهة بصرية أو جسدية أو غيرها لأسباب خارجة عن إرادتهم، هم مستحقون للمساعدة الخيرية، لكن جميع القادرين جسدياً، يقول أبي، فهم كُسالى عديمو الأخلاق، ولا يستحقون المراجعة. يجب الاستمرار في إجلاء الشحاذين خارج المدينة كما جرت العادة، أو على الأقل يذهبون إلى الملاجئ. لكن إذا كان عملهم جيداً، لم إذا تُعاقبهم الملاجئ بوجبات طعام هزيلة بعد ساعات عمل صعب طويل؟

... نظرية دارون الاجتماعية، والبقاء للأقوى ربما تُرجح عدم وجود ما يسمى بفقير «محتاج». غير القادرين على معاونة أنفسهم يجب أن يتركوا دون مساعدة لتأخذ الطبيعة مجراها، وتزيحهم من دورتها، لتفسح الطريق للجنس البشري الأقوى. أُرَجح أننا، الطبقات العليا، أمثلة على ذلك؟ لأننا نستطيع الاقتباس من شكسبير، ونعزف ألحان شوبان على البيانو، ونحافظ على قفازاتنا نظيفة أثناء احتسائنا الشاي؟ ماذا عن الأطفال؟ أغلب الذين يعانون من الفقراء والخاضعين لعملية داروين الانتقائية ينجبون أطفالاً بالفعل. وفقاً لطريقة التفكير تلك، هل يجب التخلي عن الأطفال أيضاً ليموتوا؟

... الطبقات الدنيا ليسوا قادرين فكرياً على تنظيم الاتحادات والمسيرات العسكرية، هذا ما يعلنه والدى. المؤثرات الخارجية، من المرجح الأجنبي والأعداء، يجب لومهم على تلك الاضطرابات، وللشرطة كامل الحق في سفك الدماء لوضع حد لأي اندلاع مستقبلي لأعمال العنف. لا ينكر أبي أن عمال الطواحين يعيشون في ظروف قاسية لا تلائم حتى معيشة الخنازير، ويعملون حتى يصيهم الإعياء مثل عبيد السفن تحت إشراف رجال لا قلب لهم. لكن يبدو أنه لا يعتقد استحقاتهم لأفضل من ذلك. لا يبدو أنه يشعر أنهم بشر مثلنا على الإطلاق. من العسير عليّ أن أجلس سائدة خدّاً إلى يد أستمع وأبتسم بعدوبة...

أعدت قراءة تلك السطور أكثر من مرة بسبب عقلي المرهق، ما زلت أعتبر نفسي مخادعة، بينما التعاطف مع وجهة نظر الليدى سيسلي لن يُفضي إلى أي نتيجة عملية.

قررت أنى في حاجة للنوم. النوم سيصلح ما أفسده النهار، ها أنا ذا أقتبس من شكسبير. أو في حالتي تلك، سيهتم النوم بحل أزمة عقلي المتشابكة خيوطه.

لذلك، دون أن أعترف بخوفي، أعفيت نفسي من مغامرة الأخت الراهبة تلك الليلة، وذهبت إلى فراشي.

بدالى أنى استيقظت بعد برهة، ولكن النهار قد انبلج بالفعل.

بشكل ما، بينما نمت قريرة العين - على غير عادتي - ذهني المشوش قد بدأ في ترتيب أفكاره بالفعل، لذلك حين استيقظت وجدت خيطاً من الأفكار المنطقية يتقدم في رأسي كالآتي:

جئت إلى لندن. قابلت فقراء لندن. شعرت بضرورة مساعدتهم.
الليدي سيسلي، استنادًا للوحات الفحم التي رسمتها، قد قابلتهم. لا أعرف بعد كيف حدث هذا اللقاء
غير العادي، ولا أعرف أيضًا إذا حدث قبل كتابة مذكراتها أم بعدها، ولكن بشكل ما (ويجب أن أعرف
كيف) الفتاة الشابة تسير بين فقراء لندن.

هل شعرت هي الأخرى بضرورة مساعدتهم؟ هل من المحتمل أنها غادرت المنزل بكامل حريتها؟

عدت إلى مكنتي «للعمل» كإيفي ميشل. قرأت صحف الصباح، ولم أجد أي محاولة تواصل من أمي،
فألقيت بالجرائد إلى المدفأة المشتعلة، وضغطت الجرس أطلب الشاي.
استغللت فترة انتظاري في استعادة صورة الليدي سيسلي في ذهني. مستعينة بتلك الصورة، تخيلت صورة
سريعة لليدي سيسلي. ثم، ماحية تلك الصورة من رأسي، بدأت أرسم ملامحها بدقة مستعينة بصورها
الأخرى، وكذلك ملاحظاتي عن التشابه بين ملامحها ولامح أمها وإخوتها. مرة تلو أخرى، رسمت الليدي
سيسلي، دون الإضافات الأرستقراطية، فقط الوجه، من زوايا متعددة، حتى بدأت أشعر أنني قابلتها
شخصيًا.

انهمكت فيما أصنع، فلم ألاحظ جودي يدلّف إلى المكتب حاملاً قَدح الشاي. لذلك قفزت فزعة حين
سمعت صوت الفتى يتحدث خلف قائلاً: «لم أعرف أنك ترسمين بتلك الطريقة!».
لم يكن من حقه التعليق، لكن لحسن حظه استغرق الأمر مني برهة لأستعيد أنفاسي وأخبره بذلك. حينها
تحدث مجددًا معلناً: «أنا أعرفها» وضع صينية الشاي وأشار إلى رسومات الليدي سيسلي التي انتهت منها
للتو.

سخيف. لا يمكنه أن...

انتظر لحظة.

حاولت أن أخفي مدى اهتمامي فإذا سألته مباشرة سيحجم عن الإجابة مثله كسائر الخدم لذا قلت:
«حقاً؟». حافظت على نبرتي محايدة وأنا أضيف: «ما اسمها؟».

«أنا لا أعرفها شخصيًا. لقد رأيتها في مكان ما، هذا كل ما في الأمر».

«أين؟ أرجو أن تخبرني».

«لا أتذكر».

رمقته متفحصة. يقف موشحًا بنظره بعيدًا كما لو كان يحاول تذكر حلم.

«هل كانت في عربة؟».

حرك رأسه نافيًا متحيرًا قبل أن يستدرك قائلاً: «لا يا.. لا يا آنسة ميشل. كانت تقف في إحدى الزوايا».

«أين؟ في بيكاديلي، ميدان ترافالجار، سيفن ديالز؟».

«لا أعرف».

«حسنًا، ماذا كانت تفعل؟ تتسوق؟».

«لا. لا أظن...». بدا غير متأكد.

أخذ صبري ينفد، زفرت قائلة: «تبيع أمشاط الكبريت؟». كانت احتمالية سخيفة لأن الشحاذين وحدهم
من يبيعون أمشاط الكبريت.

لكن جودي الذي بدا عليه الدهشة تتم قائلًا: «الكبريت. تشعل الكبريت».
يا للفتى ذي الأفق الضيق، بالطبع يشعل المرء الكبريت لينير له.
حاولت كبح زمام غضبي، والحفاظ على نبرة صوتي الغاضبة، وسألت مجددًا: «ماذا كانت ترتدي؟».
بالطبع لم يجب على سؤال بل قال: «كانت تحمل شيئًا في سلة».

أعتقد هذا ما يفعله نصف سكان لندن، والنصف الآخر يضع شيئًا في العربة الصغيرة ذات العجلات الأربعة. الطبقة الشائعة تحيا يومًا بيوم، لأن أغلبهم لا يملك صناديق تثلج تحفظ طعامهم، ولا يملكون موقدًا لإعداد العشاء، لذلك يشترون أغراضهم يوميًا من باعة الطرق، وهكذا يحيا الفقراء بفضل الفقراء.
سألت، بنبرة مندهشة يشوبها سخرية واضحة واثقة أن الفتى ذا رأس الحشرة بالطبع مخطئ: «شيء في السلة؟ ماذا؟ حلوى البادينج؟».

«لا آنسة ميشل. لم تحمل طعامًا. أعتقد كانت جرائد».

«أتظن أنك رأيت تلك الفتاة تبيع الصحف؟».

ربما كان من الأفضل لو أطبقت فمي، أو على الأقل تحكمت أكثر في نبرتي.

«لا يا آنسة ميشل»، قالها جودي مرتعدًا وأدركت أنه لن ينفعني أكثر من ذلك.

بالطبع بعد عدة محاولات أدركت أنني لن أعرف المزيد منه فقلت: «هذا يكفي. أشكرك يا جودي».

بعد أن غادر، تتم ببعض السباب بنبرة خفيفة، ثم تجاهلت الأمر برمته. على الأرجح هذا الفتى المُحِبُّ قد رأى فتاة جميلة أخرى.

ارتشفت من قدح الشاي، معترفة بإعجابي بعمل الفنى لعدة دقائق قبل أن ألقيه للنار تلتهمه، وُعدت لأتفكر في مسألة اختفاء الليدي سيسلي.

استبعدت فكرة هروبها السخيفة، لأسباب ذكرتها بالفعل، وأيضًا لأنه من المستبعد أن تهرب في ثوب نومها! استعدادًا لهرب رومانسي كذلك، كان الأفضل أن ترتدي ثوبًا أكثر لياقة.

لكن لنفترض أن مغامرتها لم تكن بدافع رومانسي، بل كان نحو واحد من أحياء لندن الأكثر فقرًا. حسنًا لا اختلاف: لن تهرب في ثوب النوم.

ماذا لو أنها حملت بعض الملابس المتواضعة، وأخفت ثوب النوم لتبدو... ماذا؟

لتبدو كأنها خُطفت من مضجعها؟ وأن أحدهم حملها عنوة إلى الخارج مستخدمًا السلم؟ غير منطقي.

مستحيل، بواقع تجربتي مع السلم. هل وضع السلم عند نافذتها كوسيلة تمويه؟

إذا هربت، كيف سافرت؟ هل ساعدها أحد؟

ضج رأسي بالأسئلة، دون إجابات. على الفور ضغطت على الجرس مرة ثانية.

«جودي، اذهب وأحضر سيارة أجرة».

الآنسة ميشل ستذهب للتسوق، لكن ليس إلى أي مؤسسة أتردد عليها عادةً. استقللت سيارة الأجرة -التي كلفتني ستة بنسات لكل ميل- إلى محطة القطارات، حيث القطار وسيلة مواصلات أقل تكلفة. ارتحلت مسافة قصيرة إلى الجزء الشمالي من لندن، تحديدًا حيث أردت أن أزور متجرًا بعينه: إيبينزر فينش & صن إمبوريم.

غادرت القطار في محطة سانت بانكراش -وهي قطعة معمارية فريدة إذا رأيت واحدة من قبل- عبرت عدة منازل. بينما سارت إيفي ميشل، سكرتيرة مكتب عادية ترتدي تنورة تُغطي ساقها دون أن تمس الوحل، جذبت إليها النظرات الوقحة بدلًا من الإطراءات. تلك المرة لم ينظر إليّ السادة أصحاب القبعات المرتفعة،

ولم يتمم أحد أنني أخطأت بالمجيء إلى هنا. لكن العمال الذكور خرجوا إلى عتبات محالهم، وتحدث متسكع من الطبقة الوسطى إليّ قائلاً: «كيف حالك يا عزيزتي؟ لم العجلة؟ توقفي لتتحدث قليلاً».

تظاهرت أنني لم أسمعها، ومررت دون توجيه نظرة إليه. لحسن الحظ أنه لم يتبعني، كما من المرجح أن يفعل. حقاً فتاة متسكعة تسير في الوحل تستمتع بسلام أكبر من أي سيدة وقورة تسير في شوارع المدينة. شعرت بضرورة تجاهل عدد من المتطفلين الذكور قبل أن أصل أخيراً إلى وجهتي.

دنوت من متجر إينزر فينش & صن إمبوريم، شعرت بعيني تتسع لأنني لم أر أبداً مثل هذه النوافذ المقنطرة الواسعة التي تحيط بباب المتجر، أو العديد من أشكال الفساتين اللامعة الناعمة من أحدث الصيحات. يمكنني أن أضيف، لها أكثر الألوان الزاهية.

حين دلفت إلى الداخل شعرت بمزيد من الدهشة. يجب أن يفهم القارئ أن التسوق الذي أعرفه يعني أن أدلف إلى مكتبة شحيحة الإضاءة لبيع الأدوات المكتبية، أو عطارة، أو بائع أقمشة، على سبيل المثال، وأخبر العامل ذا البدلة السوداء ما أحتاج إليه بالتحديد إما ليحلبه لي على الفور من المخزن أو ليدون طلبتي ثم يحضره. بدا التسوق منطقياً وكثيباً. لكن هذا المتجر، المضاء بلمبات جاز حتى أثناء النهار، كان أبعد ما يكون عن الكآبة لدرجة غير منطقية. بضاعته متناثرة، جذابة، تثير الارتباك. عُرض على الأرفف المعلقة على الجدران، والطاولات الخشبية، وحتى عُلق بعض البضائع في سقف المتجر، مجموعة متنوعة من السلع المذهلة: لفائف من القماش، قبعات، قفازات، أوشحة، أدوات حياكة، أفقال، ألعاب خشبية، ودُمى صغيرة، جميع مستلزمات المطابخ، دلاء، أغطية ومآزر وخطافات حديدية، تماثيل صينية، وأدوات فاخرة، زهور، وأوشحة، خام الدانتيل والشيفون. شعرت أنني داخل دوامة بصرية.

في البداية، مدهوشة بالألوان الزاهية والأغراض اللامعة من حولي، بالكاد استطعت أن أميز المحيط بي. كما لو كان كل ما يحيطني يلمع بغاية جذب انتباهي كساعة بندول لتنويمي مغناطيسياً. لكن بذلت مجهوداً إضافياً لأدق في المنظر من حولي، بدأت ألاحظ أغراضاً متنوعة ومختلفة تُعرض في أجزاء أخرى من المتجر ويبيعها موظفون آخرون -أغلبهم نساء، سعدت لرؤيتهم- ويقفون حول طاولة تمتد طويلة كما لو كانت تمتد مسافة ميل. المتجر ضخم بالفعل، بالكاد يمكن أن نسميه محلاً. تلك كانت بالطبع تجربتي الأولى لزيارة ما يُعرف بـ«متجر التجزئة».

تساءلت عما قد يفعله العمل في هذا المتجر بالعاملين. باعة القبعات يجنون، والرسامون يسوء رسمهم، أما عمال طواحين القطن فيمرضون ويموتون، هذا «المتجر» بدا لي بشكل ما غير صحي. كيف يمكن لعرض هذا العدد الكبير من الأشياء الجميلة أن يؤثر، ليس على الجسد فحسب، بل على العقل؟

في موقع بارز أمام الباب مباشرة وضعت صورة كبيرة للمالك إينزر فينش وابنه. بمجرد أن تمكنت من كبح جماح أفكار الهاربة، درست هذا الشبه باهتمام، ليس وجه إينزر فينش، بل ابنه. ألكسندر فينش.

ابن صاحب المتجر ذو السمعة السيئة، المغوي المزعوم لليدي سيسلي أليستير.

الفصل الثامن

بدا داخل الصورة الفوتوغرافية المؤطرة شخصاً عادياً. حقاً لا يميزه أي شيء يعطي انطباع أنك لن ترى له مثيلاً. شعور تولد لدي بلا شك بسبب تعبيره المصمت الذي طلب منه لتلتقط صورة جيدة. تجولت أكثر في مساحات المتجر الشاسعة، التفت حولي، ظاهرياً أبحث عن شيء أود شراءه، لكن الحقيقة كنت أبحث عن السيد ألكسندر فينش.

أردت تقييمه. أن أصل لبعض الاستنتاجات المتعلقة بشخصيته. لأخمن مدى تورطه - إذا حدث - في اختفاء الليدي سيسلي.

لحسن الحظ، عثرت عليه على الفور، حين جذب انتباهي صوت جهوري: «ألكسندر، يمكن لقرد أن يلبس النوافذ بشكل أفضل!».

نظرت نحو قائل الجملة غير الصائبة نحوياً، كان قادماً من خلف مكتب - بالأحرى من أخطبوط يجلس حوله إيصالات الدفع وإيصالات الاستلام التي تدير أنحاء المتجر كافة - يبدو أنه مكتب المالك، يقع في الركن القصي من المتجر. خلف نوافذ المكتب الكبيرة المخصصة لمراقبة العمال، رأيت إيبينزر فينش يوبخ ولده.

«... تلك الألوان يعتبرها المرء صارخة». قالها الأب ساخطاً وهو يشير لولده بسبابته ثم أضاف: «غيرهم على الفور. اختر ألواناً أكثر رقيماً».

«حسناً يا سيدي». كان فينش الشاب يقف طاوياً يديه أمامه ولم يُبد أدنى تعبير عن الحنق. حتى أن وجهه لم تظهر عليه حمرة الغضب.

«لكنك لن تخطو خطوة خارج عتبة الباب، أسمعني؟».

«أجل يا سيدي».

«أنه تلك المسألة وأخبرني فور انتهائك».

أوماً السيد ألكسندر فينش وغادر المكتب.

تحركت مسرعة لألحق به عند عتبة السلام نحاسية القضبان المؤدية إلى الطابق الأرضي للمتجر. بأنفاس مسرودة خاطبته: «عذراً سيد فينش...».

التفت ليواجهني، بدا مليحاً ومهذباً بما يكفي: «هل لي أن أساعدك، سيدي؟». ربما بدا متفاجئاً لدرجة يرتدي نظارات، وعوداً عن الزي الرصين المعتاد للعامل، ارتدى رابطة عنق عريضة لونها له زرقة الطاووس، ودبوساً على هيئة حدوة حصان، وصدريّة رمادية لامعة بأزرار بيضاء، وأزرار معدنية رائعة للأكمام، بالتأكيد بدا مشابهاً لثياب الأنسة ميشل العصرية غير الباهظة. إذا اعتاد إغواء النساء، بالتأكيد سيبيدي اهتماماً بي.

هراء. أي مقارنة بيني وبين الليدي سيسلي بالكاد عادلة.

قلت لألكسندر فينش: «سيدي، لقد سحرتني تلك المؤسسة البلورية المليئة بجميع البضائع، وأتساءل إذا أمكنك أن تُريني...»، ثم أخفضت صوتي ليصبح همهمات وحده يمكنه سماعها: «ليدي ثيودورا أليستير أرسلتني لأتحدث معك». تسارعت دقات قلبي وأنا أنتظر رد فعله.

لكنه بالكاد تفاعل مع قولي، ظهر وميض مفاجأة خافتة، ثم تعافى منه سريعاً، وسائر حبكتي قائلاً: «إذا تسمحين بالسير في هذا الاتجاه أنستي، ستسُرني مساعدتك».

قادني عبر أروقة المتجر، مرورًا بإحدى الطاومات حيث تقف موظفة جذابة خلف المنحوتات الخشبية المعروضة، ثم مرورًا بموظفة أخرى تعرض موقدًا حديدياً لزوج وزوجته، و مرورًا بعدة طاومات أخرى، إلى أن وصل إلى منضدة تقف خلفها عاملة شابة. أمرها قائلاً: «اختفي».

رغم أن نبرته كانت هادئة ومبهمة فإنها فرت بأعين مدهوشة دون ابتسامة أو كلمة واحدة - ربما من الخوف! لكن ربما كانت تلك طريقته المعتادة معها. هي في النهاية عاملة ضئيلة، وهو ابن المدير.

انسبل هو ليقف خلف المنضدة الخاوية، وقال: «هنا لدينا أحدث صيحات الأحذية النسائية».

كان من الممكن أن تجذب وقفتي معه نتبادل الحديث الانتباه خاصة وهو سيع السمعة. لكن من الممكن أن نتحدث بتلك الطريقة فأني ناظر سيفهم أننا نتحدث بشأن الأحذية وعملية البيع والشراء.

لم أضع المزيد من الوقت فقلت: «الليدي ثيودورا تهتم بالأمر بنفسها الآن، لترى ماذا يمكن أن تحققه المساواة بين الجنسين، بطريقة غير رسمية، في البحث عن الليدي سيسلي».

«حسنًا. تحتاجين شيئًا للربيع؟». قالها وجذب من الدرج الأخير حذاءً بنياً له كعب دقيق، وآخر رمادياً مزيناً بأزرار أمامية بدلاً من الجانب، وحذاء داكنًا له أربطة.

كانت الأحذية لها جودة ممتازة وجميلة المظهر، لكن تظاهرت فقط بالنظر إليها وقلت: «لا شك أنك تعتقد أنها حمقاء، لكن الليدي ثيودورا تشعر أنه يجب علينا المحاولة. كما ترى، لم تقدم الشرطة أي مساعدة».

«أخالفك الرأي. كل ما يفعلونه هو مراقبتي، ضاق والدي بي ذرعًا، لا يسمح لي بمغادرة المتجر». قالها ببساطة تمامًا كما يقول أي شيء آخر. حتى الآن عجزت عن فهمه، لا أعرف إذا كان صالحًا أم طالحًا.

سألت لأنني لم أملك سؤالاً أفضل: «هل تعيش في منزل والديك؟».

«لا أنا أقطن مع العمال الآخرين».

بلا شك هناك مهجع للعمال أعلى المتجر.

«حسنًا، أنت لديك بعض الحرية من حصار والدك. ما سر غضبته عليك؟».

«لأنني نسيت موضوعي، هذا ما يقوله، وأعامل مختلف الناس بنفس الطريقة». أشار إلى كرسي قريب مني وقال: «هل تريد الجلوس، سيدتي؟».

كانت قدمي تؤلمني ولكني قلت: «لا. لست.. أنا.. هذا اللقب...».

«حسنًا، طريقة حديثك لا توحى بحقيقتك».

بينما لم يتم منحني لقبًا ملكيًا عند الولادة، وبالتأكيد لا يمكن تقديمي طلبًا للمحكمة، فأنا ابنة رجل من الأعيان، وبالتالي فرد من أفراد الطبقة الراقية، التي لا تعمل لتجني المال. ولكتي، على عكس ثيابي، تشي بمكانتي. جلست وشفنتاي تضطربان وهمست لذاتي: علي أن أكون أكثر حذرًا. للسبب نفسه قررت ألا تتحدث القديسة التي أكونها ليلاً، لأن صوتي المميز ربما سيكشفني.

في الوقت نفسه بدأت أستوعب الذي ربما دفع الليدي سيسلي للتراسل مع هذا الشاب. خلف مظهره يرقد ذكاء كبير، ومميزات واضحة أخرى.

في الواقع، شعرت للحظة بعدم الارتياح تماما وهو يتكئ على مرفقيه يدرسني من خلال نظاراته القاتمة، مما جعل من الصعب علي رؤية عينيه أو قراءة تعبيرهما.

حين ابتعدت عن مرمى نظراته، ابتسم الشاب ابتسامة خافتة. للحظة بدت ابتسامة إدراك - معرفة أو انتصارًا. قال: «أؤمن أننا التقينا من قبل. هل يمكنني سؤالك عن اسمك؟».

قلت متحكمة في نبرتي بقدر ما أستطيع: «بالطبع يمكنك».

مرت دقيقة حتى استوعب أنني لن أجيبه. ثم بدا أنه تغاضى عن الأمر برمته حين قال: «في رأيي الحذاء ذو الأربطة أفضل من الحذاء ذي الأزرار». رفع الحذاء وأكمل معدداً مزاياه: «إنه يجنبك الملل من الأزرار، ويحكم الجلد بشكل أوثق إلى طرف مرتديه».

لم يكن من الضروري ما فعله، إذ لم يكن من المفترض أن أرى قعر الحذاء، وهذا ما يعرفه الشاب. وهو يتحدث كان يضغط على الأربطة ليوضح طريقة استخدامها، وكيف يمكن ربطها لتغير شكل الحذاء.

بالكاد نظرت إلى الأحذية وعلقت: «معك حق». استقر انتباهي على وجهه الدائري الأصم وأضفت: «إذا كنتُ ليدي، هل تعتبر نفسك رجلاً نبيلًا؟».

«هذه وجهة نظري. هذه الدولة حمقاء لأنها تقيم البشر حسب ألقابهم. لم يجب أن نعتبر كسولاً أرستقراطيًا أكثر نبلاً من عامل مُكد من الطبقة العاملة؟».

بينما تحدث عن هذه الحماقات، بدأ استشعار الشغف يظهر خلف هدوئه الظاهري.

سألت حذرة وأنا لا أعرف إلى أين يقود سؤالِي: «أنت مناصر للديمقراطية؟». كان أمراً صادماً حتى لفتاة ربتها سيدة تناصر اقتراع المرأة. لكنه أجابني: «أحترق كل تلك المسميات». صدر من أنفه صوت اعتراض خافت، وضع الحذاء الداكن وأضاف: «أنا لا أعادي أحداً، سأصادق الجميع»، (أضف بمزيد من الخبث) «وإذا كان أحدهم في حاجة للمساعدة، سأساعده سواء كان خادماً أو...»، الطريقة التي توقف بها عن الحديث منحنتني إشارة.

سألت: «احتاجت الليدي سيسلي المساعدة؟».

خفت صوته الحاد، إن لم يكن زاد نعومة وقال: «أصاب العطب إطار دراجتها، هذا كُل ما في الأمر. كنتُ في الخارج أقوم بعدة مهام وتصادف مروري، أصلحتها لها وتبادلنا الحديث».

هدر صوت ذكوري حاد: «ألكسندر!».

فقال ألكسندر: «لشراء الحذاء أنستي كُل ما عليك أن تمنحيني فرصة قياس قدمك اليمنى...».

ظهر السيد إينزر فينش في الأفق هادراً: «ألكسندر! أخبرتك ألا...»، صمت فجأة ثم أردف: «آه! أنت تساعد زبونة».

أمر غريب، في حين تراءى لي الأب انفعالياً، بدا الابن رائقاً، أكثر من رائق في الواقع، بدا متحجراً.

بعد أن رحل الأب، دون أن يحظى بأدنى فكرة عما يخبرني به الشاب، استطرد ألكسندر: «الليدي سيسلي كانت فتاة جادة. كانت تقرأ كتاب داس كايبثال، وكنا نناقش كيفية استغلال الشعوب».

داس كايبثال؟ سمعت أقوالاً متناثرة عن هذا الكتاب - يُعتبر كتاباً صادماً، لا، أكثر من صادم، ببساطة مؤسف. مع ذلك، كما الحال مع تلك الموضوعات الهامشية - مثل «حياة سيئي السمعة» - لم يكن لدي أدنى فكرة عن طبيعة الكتاب.

مع ذلك، لم يبد أن السيد ألكسندر فينش كان في حاجة لفهمي ليستمر في الحديث: «اعتبرت الليدي سيسلي اجتماعنا صدفة قدرية. أرادت أن أريها البروليتاريا».

بروليتاريا؟! ربما هذا مبنى حكومي؟

أكمل ألكسندر: «ليس فقط خدم المنازل، أو العمال، أو الحرفيين، بل أرادت أن ترى الطبقة الدنيا الكادحة من عمال المصانع. بطبيعة الحال، مثلت لطلبها. تراسلنا، وعلى مدار فترة من الوقت...».

قاطعتة قائلة: «آه!».

«عذراً، أيزعجك أمرٌ ما؟».

«على الإطلاق». كنت قد قاطعته لأنني فهمت كيف تمكنت الليدي سيسلي من رسم تلك الرسوم بالفحم فسألتها: «لقد صحبتها إلى حي الجمرك، والإصلاحية، وسانت جيلس، وسوق السمك في بيلينجس جايت؟».

«كيف عرفت ذلك؟». رأيت تقطيعه جبينه. «أجل هذا ما فعلته. كانت تذهب لركوب الدراجات مع أصدقائها، وترتب للقائي، وكنت أصطحبها لترى كيف يحيا أغلب الناس في أشهر مدن العالم». ماركس. أتذكر الآن. رجل فطيع يُدعى كارل ماركس هو من كتب داس كابيتال. همست عاجزة عن الحديث في هذا الشأن بصوت مرتفع: «الليدي سيسلي كانت ماركسية؟».

ظهر ازدراء الشاب لقدراتي الفكرية جلياً حين قال: «أخبرتكم، لا أقتنع بتلك المسميات». قُلت بوداعة، لأنني اعتدت على الازدراء بسبب نشأتي في عائلة هولمز: «أعتذر. آسفة لإزعاجك بالكثير من الأسئلة. اسمح لي فقط بهذا السؤال: لماذا أرادت الليدي سيسلي أن ترى البروليتاريا؟».

«لأنها معرفة ما كانت لتجنبها من مكان آخر بالطبع. كانت أسئلتها لا تنتهي. لماذا كان هناك الكثير من محلات الرهن. لماذا قادت الخادمة التي تحلب الأبقار حملاً خلفها. ما هي «القطارات» ومن أين أتت. لماذا الأطفال يصنعون صناديق للعب، والنساء الفقيرات يخيطن أكياس الخيش؟».

«ولكنها بالتأكيد أرادت تلك المعرفة لتستغلها في غرض ما بالطبع. ماذا كانت خططها؟». تحولت نبرته -رغم حفاظه على هدوئها- لشيء من التجهم: «لتسخر مني، تجعلني محط سخريه». لم تكن الإجابة التي توقعتها: «ماذا تعني بقولك؟».

«أهناك قول أكثر وضوحاً؟ لقد هربت لمكان ما، وأنا من يتلقى اللوم». قُلت بقله حيلة: «ربما لم تعرف أنك ستلام». «لم اختلقت أمر السلم إذا؟».

أسقط في يدي، وأنا أعرف جيداً لم اختلقت أمر السلم: لأن عائلة الليدي سيسلي، التي لا تعرف عنها سوى رسوماتها العذبة زاهية الألوان، يجب أن تفهم أنها وقعت ضحية شاب سخيف أغواها. في حين أن الحقيقة مختلفة، فامرأة شابة تقرأ ماركس قادرة على فعل أي شيء.

سألت السيد ألكسندر فينش: «لكن ألم تتواصل معك على الإطلاق؟ هل لديك أدنى فكرة أين ذهبت؟». قال الشاب وهو ينظم الأحذية فوق المنضدة: «لا أعرف شيئاً قط عن الأمر، لكن ما أعتقد أنها خرجت من الباب الأمامي للمنزل، ووضعت السلم عند عتبة النافذة بنفسها».

الفصل التاسع

في طريق عودتي إلى شارع محطة بانكراس توقفتُ عند مكتبة.

- داس كابيتال، بقلم كارل ماركس.

كذا أخبرتُ الرجل البدين الجالس خلف الخزينة.

لم يتحرك، في الواقع، بدا أنه يُعاني عدة أنواع من تعاسة القصص الخرافية، كأنه تحول لحجر اللهم إلا فمه الذي فتح وأغلق عدة مرات.

أخبرته:

- أؤكد لك، لقد نظرتُ نظرة موجزة بداخله ومن ثم قررتُ هذا، إنني أنوي تغليفه كليًا بالنسيج ثم سأستخدمه كحاجز للباب.

التوى فمه مُشكلاً خط رفض قبل أن يتحدث:

- بالترجمة الإنجليزية، يا أنسة. أم تريدين النسخة الألمانية الأصلية؟

- بالإنجليزية، بالطبع.

هل أبدو كباحثة؟ هل أتصرف كواحدة؟ أوه، يا عزيزي، يجب عليّ الحذر أكثر من هذا والسيطرة على لهجتي الراقية، التي لامني ألكسندر فينش بسببها.

لم أكن أعرف مطلقاً ماهية التفكير في ألكسندر فينش. تمكنتُ من قراءة النذر اليسير في وجهه، لكن في بعض الأحيان كانت طريقته غريبة. فعلياً غير لائق أبداً، لكنه فريد بشكل مهذب. ومع ذلك شعرتُ بالتعاطف معه، إذ إنه كان خاضعاً لطباع والده، لقد أعجبتُ برونقه، كما أني أقدر استعداده للتحدث معي بصراحة. جذبتني نظريته بأن الليدي سيسلي خرجت من الباب الأمامي ووضعت سُلمًا مُضلاً على نافذتها، إنه نوع الأشياء التي قد أفعلها.

إجمالاً، عندما غادرتُ المكتبة مع طردي الثقيل، شعرتُ أنني لم أتعلم الكثير. وبعد فحص أجزاء من كتاب داس كابيتال ذلك المساء في خصوصية مسكني، شعرتُ أنه - باستثناء تعلم ماهية البروليتاريا، أي عامة الناس - بخلاف ذلك، عرفتُ مقداراً أقل من ذي قبل. هل تحولت الليدي سيسلي إلى الماركسية بعد قراءة هذا الكتاب؟ لقد درستُ هوبنز، داروين، وحتى استشهاد الرجل لوينوود ريد قرأتها باهتمام، لكن ماركس - يجب عليّ الاعتراف أن ماركس جعلني أنام.

سليمة تماماً. استيقظتُ صباح اليوم التالي متسائلةً عن نوع الذكاء الذي قد تملكه الليدي سيسلي حتى يُمكنها من تقدير مثل هذه القمامة المخلخلة.

وماذا - مع الأخذ في الاعتبار بعض تصريحاته الصادمة نوعاً - كان ألكسندر فينش يقرأ.

وإذا كانت الليدي سيسلي قد خرجت بالفعل من الباب بنفسها، ما الذي كانت ترتديه، وأين ذهبت، ولأي غرض؟

لكن كل هذه الأسئلة انسابت خارجة من ذهني بلا إجابة لما جلستُ على مكثبي أرتشف شاي الصباح وأطالع الصحف، في العمود الشخصي لجريدة بال مول جازيت وجدتُ التالي:

245255 33151545 3315 4445154144

12432445244423 335144155133

21245215 45353424222345

333545231544

فتشت عن ورقة وقلم، خربشت الأبجدية في سطور من خمسة أحرف، ثم شرعت في العمل.
245255. السطر الثاني، الحرف الرابع، إي. السطر الخامس، الحرف الثاني، ف. السطر الخامس، الحرف

الخامس:

إيفي

إنه من أجلي!

تحمست في فك الشفرة. نصت الرسالة التي تم فك شفرتها بالكامل على: «إيفي قابليني على عتبات المتحف البريطاني الليلة. أمك».

سريع جداً، مفاجئ جداً، بطريقة كهذه، سأرى والدتي مرة أخرى؟ شعرت كأن قلبي قد توقف. وبنفس السرعة بدأ مرة أخرى يدق بقوة وسرعة كأنه طبلة الفوج، كعصيدة من المشاعر المتضاربة تحركت نفسي. لقد أحببتُ أمي. لقد كرهتها. لقد تخلت عني. لقد أنقذتني. إنها لا تحبني. لكنها منحنتني حريتي، عن طريق قدر كبير من المال وكذلك الطريقة التي ربنتي بها. استقلالها العنيد، مناصرتها القوية لحقوق المرأة... مهلاً لحظة.

«إيفي قابليني على عتبات المتحف البريطاني الليلة. أمك».

المتحف البريطاني؟ تلك المؤسسة الحظيرة؟ كانت أمي تكره المتحف البريطاني لاستمراره في إهانة الباحثات. «عتبات المتحف البريطاني» يبدو أنه أكثر الأماكن غير المناسبة لها حتى تختاره لمقابلتها. في هذه الأثناء، ساورني الشك، اكتشفت أنه على الرغم من مشاعري المتضاربة، كنت راعبة في رؤية والدتي. مشتاقة لذلك. على كل حال لقد حاولت بشدة تصديق الرسالة، أخبرت نفسي أن والدتي اختارت المتحف البريطاني ببساطة لأنه مكان مناسب للقاء، ويقع في موقع مركزي في منطقة محترمة من المدينة. لكن في نفس الوقت أمكنني سماع صوتها داخل رأسي يناشدني، إينولا، فكري. لقد فكرتُ.

ولم تُقدم أفكار أي راحة. لم تستخدم هذه الرسالة شيفرة الزهرة الخاصة بنا بأي شكل. لم تكن والدتي لتقول «قابليني». لكنها ستستعمل بعض الإشارات إلى الزهر القرمزي أو الهدال، وكلاهما رمز قديم يدل على المقابلة. ما كانت لتقول «أمك». عوضاً عن ذلك، كانت لتقول «أقحوانتك»، التي تعني الأم.

استنتاج لا مفر منه: هذه الرسالة لم توضع في الصحيفة بواسطتها.

لكنني ما زلتُ راعبة في التصديق أنها من أمي. ترى من يكون..

لا!

لقد عرفتُ.

أخي شديد الذكاء.

بلغ ارتباكي درجة أعجزتني عن الحفاظ على صفاء ذهني. حتى أتيقن أنني جمعت كل الأفكار القيمة بشكل كافٍ قمتُ بفحص بقية الإعلانات الشخصية في جميع الصحف. في حالة ما إذا كان هنالك شيء من أمي حقاً.

بالطبع، لم يكن هناك شيء. في الواقع، إن الأمر مبكر قليلاً هذه المرة، استغرقت الرسائل السابقة أسبوعاً أو أكثر حتى تصل. بينما لم يكن لدي فكرة عن كيف أو أين يمضي الغجر فصل الشتاء، تصورتُ أمي في مكان ما بعيداً من أراضي الريف، يتطلب وقتاً حتى تتلقى منشوراتها عن طريق البريد، وتفك شيفرة رسائلي، تتحقق من جداول القطارات، ثم ترسل الرد.

ونظرًا لأنها ستأتي إلى لندن عن طريق القطار، ألن تطلب مني مقابلتها في محطة السكة الحديدية أو بالقرب منها؟ بالتأكيد سوف تفعل.

المتحف البريطاني، احتيال. أيًا يكن من وضع هذا الإعلان فلديه اعتباراته الخاصة وليس اعتبارات والدتي.

أيًا يكن؟ هممممم. إنني أعلم جيدًا أنه شارلوك.

على الرغم من أن الأمر استغرق مني بضع ساعات والكثير من الصداع، حتى أفترض كيف حدث هذا التحول المزعج في الأحداث، ومن ثم قررت ما يجب فعله.

لحسن الحظ، احتفظ السكرتير البارع لدكتور راجوستين بعنوان الدكتور جون واتسون.

في فترة ما بعد الظهر، استقلتُ سيارة أجرة ذاهبة إلى مكتب الطبيب الجدير بهذا، وجدتُ نفسي أخرج أمام مجمع عيادات وأماكن إقامة متواضعة في شارع جانبي شمالي غرب لندن.

أرتني خادمة يُمكن لجودي تقليدها على الأقل من الناحية الأخلاقية غرفة انتظار صغيرة ذات أثاث قليل الاهتراء، وأخبرتني أن الطبيب في الخارج حاليًا لكنه سيعود قريبًا، حيث إن ساعات استشارته تبدأ في الواحدة. أظهرت الساعة المعلقة على الزاوية القريبة من الباب أنه يتبقى فقط ربع ساعة حتى تلك الساعة. كنتُ مسرورة بالانتظار.

عندما دقت الساعة مُعلنةً تمام الواحدة، انضمت إليّ في غرفة الانتظار عجوز تُعاني من تضخم الغدة، ترتدي زيًا موحدًا ولديها عرجة بسيطة. على كل، سيسمح لي بدخول غرفة استشارة الطبيب أولاً.

تمامًا مثل غرفة انتظاره، ثمة الكثير من الخيوط الصغيرة المهترئة التي تُحيط بالمفروشات والستائر.

«آنسة، إمم...». وقف خلف مكتبه مُحييًا إياي، تعرف عليّ الطبيب ذو العينين اللتين تنبعث منهما الطيبة لكنه عجز عن تذكر اسمي.

«الآنسة ميشل، من مكتب الدكتور راجوستين».

«الآنسة ميشل!»، أضاءت ابتسامته وجهه ذا الملامح المألوفة، مما جعله يبدو ساحرًا.

«اجلسي». أشار إلى الكرسي حيث يجلس المرضى ثم جلس خلف مكتبه مرة أخرى. «كيف يُمكنني أن أكون شاكراً على هذا الشرف غير المتوقع؟».

كانت طريقته منفتحة وودودة لدرجة أنني صدقتُ أنني خجلتُ بالفعل. كنتُ سأعشق هذا الرجل كآب.

حتى تلك اللحظة، على الرغم من أنني كنتُ أفكر في كثير من الأحيان أنه من الجميل أن يكون لديك صديق أو -عائلة، حسبما أفترض، ليست عجيبة الطباع ومتفرقة بل أسرة حقيقية كالتي تمضي أمسياتها في الصالون تقرأ- مع ذلك، لم أدرك أبدًا أنني سأحب أن يكون لي أب. توفي والدي لما كنتُ في الرابعة من عمري، وحتى هذه اللحظة لم أفقده على وجه الخصوص.

لكنني أفعل الآن.

«إنني، اممم، خائفة، من استقطاع كثير من وقتك»، أخبرتُ دكتور واتسون، متعثرةً قليلاً بسبب المفاجأة التي أحدثتها مشاعري. أكملتُ: «لقد قام الدكتور راجوستين، باستعراض قضيتك ومن ثم أرسلني حتى أسألك سؤالاً».

«في كل الحالات. يُسعدني اهتمامه. فقط بالأمس حدثتُ نفسي قائلاً أنه يجب عليّ المرور بمكتبه والاستفسار. لكن ها أنتِ ذا هنا الآن. من فضلكِ تابعي».

«يريد الدكتور راجوستين معرفة، ما إذا كان السيد شارلوك هولمز يُتابع شيفرة بعينها موجودة في الأعمدة الشخصية لجريدة بال مول جازيت؟».

رد واتسون قائلًا: «دائمًا ما يقرأ هولمز «أعمدة الحوادث» في كل الصحف الكبرى».

«أجل، لكن هل هناك أي شيفرة على التحديد؟ هل لاحظت أي شيء على مكتبه، على سبيل المثال لما ذهبت لزيارته؟».

«نعم، لكن هذا لا علاقة بالجريدة. شفرات، أجل هنالك كُتيب صغير منها، يدوي الصنع، رُسمت على واجهته زهور الماء. ليس من نوعية الأشياء التي نتوقع أن يعمل هولمز عليها مطلقًا. تبدو كهواية لسيدة. لقد نهرني هولمز عندما حاولتُ إلقاء نظرة فاحصة عليه».

الأمر كما خشيتُ تمامًا. شعرتُ بقليل من الضعف، أغمضتُ عينيّ.

«آنسة ميشل؟ إنني أعلم أنك لستِ هنا من أجل استشارتي كعلاج، لكن، هل أنتِ مريضة؟».

«مجرد صداع شديد، دكتور واتسون».

صداع نوعاً ما في الواقع. «هواية السيدة» هو كتاب الشفرات الخاص بي، ذاك الذي صنعته أمي ومن ثم أعطته لي في عيد ميلادي الرابع عشر المشؤوم، كما أنه يحوي رسائل سرية قد تخبرني أين خبأت ثروتها. في الواقع، إنه أثمن تذكاري حصلت عليه من أمي. لكن في يومي الأول في لندن، سُرق مني بواسطة سفاحٍ عندما كنتُ غائبة عن الوعي، لقد اعتقدتُ أنه ضاع مدى الحياة.

الآن، ومع ذلك رأيتُ ما حدث: عندما ذهب المفتش ليستراد من سكوتلاند يارد للقبض على السفاح، قام بتفتيش مقصورة القارب. ثم وجد هذا الكُتيب الصغير المنمق، الذي لا يلائم هذا المكان بما فيه الكفاية لذا قام بعرضه على صديقه شارلوك هولمز.

أوربما كان المحقق العظيم شارلوك هولمز في إثر المسألة بنفسه. وميّز في الكتيب خط يد أمنا.

هكذا إذاً عرف أخواي ما أملكه من نقود. بعد حل الشفرات، ربما فحص شارلوك منزل طفولتنا المشتركة. وفي الوقت عينه، من المرجح أنه استنتج رابطاً بين الشفرات وما يقرأه في أعمدة بال مول جازيت.

أصبحت شبه أكيدة أنه فك الشفرات كافة. ربما كان يتجسس على مراسلاتي مع أمي. والآن قد وضع هذا الإعلان طعمًا لي.

قال الدكتور واتسون بنبرة بدا عليها القلق: «آنسة ميشل. لا تبدين على ما يُرام».

تحسس نبضي وسألني عمّا تناولته في وجبة الغداء، منحني الطيب العطوف دواء مسكناً وجعلني أستلقي في غرفة خاصة بالفحص، ثم انصرف ليهتم بمرضاه الآخرين.

ربما مرت ساعة قبل أن يطل برأسه سائلًا: «أي تحسن؟».

نهضت مزيلة الغطاء الذي دثرني به قائلة: «أفضل بكثير، أشكرك دكتور واتسون». لم أقل سوى الحقيقة.

تلك الساعة التي استرحتها منحني الوقت لأتذكر وجه أمي، وقولها الأثير: «إينولا ستُحسنين صنْعًا بمفردك». وهكذا هدأت من روعي. واتخذت قرارًا. ووضعت خطة. تحتاج مني أن أستعد قبل الخامسة مساءً، وبالفعل تجاوزت عقارب الساعة الثالثة.

رفض دكتور واتسون أن يتلقى مني النقود نظير الاستشارة. شكرته بعمق وغادرته نحو موقف السيارات الأجرة. قُلت لأحد السائقين: «شارع بيكر».

حين دلفت إلى كابينة العربة أغلقت الستائر، وبدأت أُعيد ترتيب مظهري لأتخلص من أكبر قدر ممكن من شخصية إيفي ميشل. تخلصت من قبعتي القش ووضعتها أسفل المقعد. ثم وضعت شعرًا مستعارًا،

وأضفت قطعاً من الجلد إلى أذنيّ لأغير من شكلهما. ارتديت الحلي الباهظة اللامعة. كلها أغراض حصلت عليها من المشد، كما سبق وذكرت فأنا أحتفظ داخله بأشياء كثيرة نافعة، جذبت أيضاً وشاحاً، ولففت رأسي. أغلقت معطفي لأخفي أغلب ثوبي. ثم فتحت الستائر، ورمقت باهتمام، وأنا أنظر إلى مسكن أخي للمرة الأولى، مبنى رقم 221 شارع بيكر: مسكن عادي يقع بين سلسلة من المساكن والمحال، مكان طبيعي يسكنه شخص فريد كشارلوك هولمز.

انتظرت حتى وصلنا إلى ناصية الشارع من الجهة الأخرى، وطرقت سقف الكابينة معلنة رغبتني في التوقف.

بمجرد أن هبطت على الأرض عدت إلى الرقم 221 على الجانب الآخر من الشارع، على أمل ألا أضطر إلى الوقوف في البرد لفترة طويلة. أيضاً لكي لا يثير بقائي الشبهات. في مثل هذا الطقس المتجمد، كان هناك عدد أقل من المعتاد من الناس، رغم أن بائعي الأخبار ما زالوا يصرخون بحثاً عن لقمة العيش: «جريمة قتل رهيبية في وايت تشابل. اقرأ كل شيء عن ذلك!». ودفع بائعو السمك عرباتهم صارخين: «المحار الطازج، المحار الحلي!». وكلها مغطاة بالماء، كما حاولت امرأة فقيرة بيع تفاهات وضعتها في سلة: «البرتقال، أربطة الأحذية، الصحف!».

توقفت لأرى ما لديها. وبصرف النظر عن البرتقال المذكور أعلاه الذي كان من الأفضل أن يطلق عليه «البنّي» لكنها أحسنت صنع أربطة الأحذية، ونقشت عليها الفراشات والزهور. سألتها: «رسوم ماهرة، هل تحبطينها بنفسك؟».

«أجل يا سيدتي، إلا أنني بالكاد أرى بسبب هذه الصنعة».

بالتأكيد هي تُحوك على ضوء الشمع أو ألسنة النار، أو حتى أسفل مصابيح الليل، يالها من مسكينة.

سألتها وأنا أفحص واحدة من الأربطة: «كم بعث؟».

«ليس ما يكفي سيدتي». قالتها بشفاه ترتعد من البرد. في الواقع كان كلانا يرتعد من البرد وأضافت: «في الشوارع الفخمة، حيث لا يفوت الباعة فرصة الحصول على فلس أو اثنين، يدفعني الباعة الآخرون بعيداً، هذا ما يفعلونه».

«إذا أنت تعيشين في الجوار؟».

«لا سيدتي، أعيش في ساوث وارك. لكن لا يبتاع أحد ما أحوكة هناك».

لا أخالفها الرأي. تقع ساوث وارك على الضفة الأخرى من نهر التايمز، وهي تعج بالمسارح سيئة السمعة، والمقامرة، والحانات وغيرها.

وبمجرد عودة المرأة إلى ساوث وارك، ليس من المرجح أن يقابلها مرة أخرى شخص يعيش في شارع بيكر.

أخبرتها: «سأمنحك جنيهاً نظير كل ما تملكينه. وسأبدل معطفي الصوف بمعطفك الوافي من المطر».

ضحكت في وجهي، وكان لديها حنكة كافية منعتها من طرح الأسئلة.

ذهبت مبتهجة، ترتدي معطفي، وتملك مبلغاً كافياً من المال للمرة الأولى، وذهبت أنا الأخرى في طريقي مرتدية معطفها وحاملة سلتها، أنادي بلهجة الباعة: «برتقال! أربطة أحذية! الصحف!».

خدعة جيدة وضرورية، لأنني تحركت بالفعل صعوداً وهبوطاً في تلك المنطقة من شارع بيكر لمدة ثلاثة أرباع ساعة كاملة (وبعت بالفعل مساحتين من القلم!) قبل أن أرى شارلوك هولمز يخرج من مسكنه.

ليس في ثوب رجل نبيل، بالطبع. في طريقه للقبض عليّ، أو هكذا اعتقد، كان قد تنكر بما فيه الكفاية حتى لا ألاحظه أو أتعرف عليه إلا بعد فوات الأوان. لذلك خرج كعامل عادي يرتدي حزامًا جلدًا حول معطفه، ومميصًا من القماش الزهيد، وقبعة من القماش تغطي جزءًا من جبينه.

مر قربي وهو في طريقه إلى المتحف البريطاني، دون أن يلقي لي بالًا. بخلاف ثيابه، لم يكن قد غيرَ أيًا من ملامحه. رجف قلبي، ورأيت أن ملامحه الشبيهة بالصقور تبدو في الواقع شاحبة ومرعبة، كما قال صديقه واتسون.

صامتة، أعاني من ألم يعتصر داخلي، راقبته يسير. أخذت نفسًا طويلاً، وزفرته. ثم تحركت. توقفت عند متجر لبائع الخضار، ووضعت سلتي ودفعتها بقدمي إلى صندوق تفاح ثم اشتريت شريحة من البصل.

وأنا أسير نحو المنزل رقم 221، خبأت الشريحة في منديلي وقربتها من عيني، التي سرعان ما استجابت لخطتي واغرورقت بالدموع. جيد جدًا.

بالفعل، في هذا الوقت القارس من العام، تخلو الشوارع إلا من الظلال. بلا شك أن أخي اختار تلك الساعة لترجح كفة نجاح خطته. سيسدل الليل أستاره حين يصل شارلوك إلى عتبات المتحف حيث.. أماه! ماذا لو كنت مخطئة؟ ماذا لو كانت تنتظرنني رغم كل شيء؟ عُدت في غير حاجة لشريحة البصل، لأنني بدأت أبكي بالفعل.

الفصل العاشر

فتحت لي امرأة مسنة ترتدي سترة بسيطة محتشمة، بدت مندهشة لرؤيتي أبكي على عتبة الباب. تساءلت من بين دموعي: «هل.. السيد شارلوك هولمز.. موجود؟». تناسيت أن أتحدث بلكنة (السيد أولمز) تليق بمظهري، لكن ربما بسبب دموعي المنهمرة لم تلحظ ذلك. ضمت وشاحًا حول كتفيها لتحديثي قائلة: «باركك الرب يا عزيزتي، لقد خرج للتو». السيدة هدمسون الشيباء بدت روحًا عطوفة. بالطبع كنت أعرفها من رسائل الدكتور واتسون، لكن تذكرت ألا أناديها باسمها.

انتحبت قائلة: «لكن.. لكن ينبغي أن أقابله تلك الليلة».

«لا أعرف متى سيعود الليلة يا أنسة».

«لا يهم. أنا في وضع.. أنا في مأزق.. سأنتظر».

«لكنه قد يتأخر ساعات طويلة».

ارتجفت رُغم الوشاح مُحكم الغلق، وتراجعت عدة خطوات تستعد لغلق الباب: «لم لا تعودين لاحقًا؟».

بتذمر قلت وأنا أجلس إلى عتبة الباب المتجمدة من برودة الطقس: «سأنتظر».

«باركك الرب يا عزيزتي، لا يمكن أن تنتظري هنا. ستتجمدين. ادلفي، ادلفي».

كما تمنيت، قادتني إلى الداخل وأجلستني في غرفة جلوس أخي.

تمت: «يا للروعة»، تناسيت نفسي من فرط المفاجأة، لم أدلف من قبل إلى مسكن أعزب. عرفت بالطبع من كتابات الدكتور واتسون أنني سأرى تبغًا (في غليون فارسي على الأقل) وكمانًا (آلة لها قوس للعزف موضوعة بإهمال على أحد الكراسي)، ورسائل مُزقت أظرفها متروكة على رف الموقد، وثقوبًا أحدثتها الرصاصات في الجدار، وهكذا. لكن وجدت نفسي غير مستعدة لما يفتقره المسكن. لا توجد زهور. لا توجد وسادات ناعمة. لا توجد تنورات على الكراسي.

أن تكون رجلًا، على ما يبدو، يعني الافتقار إلى القدرة على أن تكون امرأة.

حاولت السيدة هدمسون أن ترتب الأوراق والكتب المتناثرة في كل الأنحاء. وقالت معذرة نيابة عنه: «السيد هولمز نظيف الملبس والمظهر والعادات الشخصية، إن لم يكن نظيفًا في ترتيب منزله. هو رجل نبيل بحق. أيًا كان ما يواجهك من صعوبات سيبدل قصارى جهده ليساعدك أنتي، ولا تأهبي إذا كنت قادرة على تحمل تكلفة خدماته أم لا».

أثارت كلماتها الشجن في نفسي، لأن على الرغم من خداعه، أردت أن أصدق بالخير الذي تقصه على أخي.

«هل أحمل عنك سترتك يا أنسة؟»، شرعت تساعدني في خلعهما لكنني اعترضت متشبثة بسترتي المضادة

لمياه الأمطار التي أخفي أسفلها فستان إيفي ميشل العصري: «لا. أشكرك. أشعر بالبرد».

«حسنًا يا أنسة. لتجلسي». أزال العجوز الرقيقة كومة من الصحف وضعت على كرسي له مسندان

بالقرب من المدفأة وأضافت: «سأذهب لأجلب لك قَدْحًا من الشاي».

بمجرد أن أغلقت السيدة الباب قفزت من مقعدي، وسرت بأقل جلبة ممكنة نحو مكتب أخي، أمسح

بنفاد الصبر دموعي. بدأت أفحص كومة من الأوراق بأعين حجبتها الدموع. فشلت في العثور عما كنت

أبحثه عنه فوضعتها جانبًا.

رأيت على سطح المكتب الخاوي الآن، المصباح المعتاد وأدوات الكتابة.

بالطبع الشيء الذي أبحث عنه يمكن أن يكون في أي مكان آخر في الغرف، لكن شعرت أن أخي، رُغم أنه ترك الكمان مهملاً على كرسي، سيهتم كثيراً بهذا الدليل الهام. حاولت فتح درج مكتبه. مُغلق.

مددت يدي إلى المعطف لأجذب البروش، أي الخنجر، أدخلت شفرته الرفيعة في ثقب المفتاح وعالجت المزلاج.

يجب أن أعترف، لست أفترق إلى الخبرة في ذلك الفن. يتعلم أي فتى مغامر نشأ بين صناديق السكر المغلقة جيداً كيف يفتح الأقفال.

بنقرة، فُتح الدرج. أعدت الخنجر إلى مخبئه داخل البروش، وفتحت الدرج. توقعت أن أرى أقلاماً، ورقاً نشافاً، مسطرة خشبية، وأشياء من هذا القبيل. لكن لم أر أيّاً من ذلك.

بل كان الدرج إطاراً مبسطاً لحياة أخي الغريبة. رأيت مسدساً، وصندوقاً من الخراطيش، وقبينة صغيرة من سائل شفاف، وإبرة وحقنة (كالتي يستخدمها الطبيب) داخل علبة مخملية مفتوحة، وصورة أنيقة مطرزة لأمراة جميلة وتلك أثارت الكثير من فضولي حين ملكت الوقت لأفكر بها. تخزنت تلك الأشياء في ذاكرتي، حين جذب انتباهي بالكامل شيء آخر.

بأصابع مرتعشة جذبت: الكتيب الثمين المرسوم والمكتوب بخط اليد للشفرات التي صنعتها أمي لي. انفجرت أبكي مجدداً لرؤيته. لكن لم أملك الوقت لأقبله أو أعانقه، أو أظهر أي عاطفة نحوه. أسمع بالفعل أقدام السيدة هدسون على درجات السلم. دفعت كتيب التشفير في معطفي. أغلقت الدرج. وتحركت ثلاث خطوات واسعة خفيفة إلى المقعد الذي كنت أجلس عليه، ضامة المعطف حولي جيداً. دلفت السيدة هدسون تحمل صينية.

قالت وهي تسكب الشاي: «تفضلي الشاي يا آنسة». ولسوء حظي سكبت لنفسها قدحاً وجلست لترافقني.

«هل ما زلت تشعرين بالبرد، عزيزتي؟ لم لا ترخين جسدك في المقعد لتستمعي بالشاي». هززت رأسي رافضة. لم أجد صعوبة في التصرف بطريقة غريبة، هيسترية (لأنني كنت بالفعل مضطربة، لكن ظننت أن هذا لم يكف. ربما قد بالغت في تأدية دوري، ماذا لو خططت السيدة هدسون المتعاطفة أن تجالسني إلى أن يعود أخي؟

قدمت لي صحناً قائلة: «أترغبين في قطعة من كعك الجوز؟». مجدداً هززت رأسي رافضة وقلت: «لا. أشكرك. أنا.. سيدة...». توقفت عن الحديث في الوقت المناسب. قالت: «هدسون يا عزيزتي».

«سيدة هدسون، أتساءل إذا...»، لا يمكن للمرء أن يصطنع الخجل فتتورد وجنتاه، لكن لم أكن بحاجة للتصنع، لأنني شخص خجول بالفعل. أكملت: «الطبيعة تنادي هل هناك...». قفزت العجوز الطيبة: «أوه! عزيزتي. بالطبع. هل يمكنك الانتظار عدة دقائق أخرى. عليّ أن أذهب لأفحصه».

أعرف أن المرحاض يقع في أقصى الطابق الأرضي بالقرب من الباب الخلفي للمنزل، لأن تلك الأماكن تتبعث منها روائح كريهة لا ينبغي أن تكون قريبة من المطبخ أو غرفة المعيشة. وكان على السيدة هدسون أن تتفقد المكان، وتُعطره، وتوفر إبريقاً من الماء الساخن، ومنشفة جديدة، قبل أن تصطحبني إلى هناك.

حين فقدت أثر صوت أقدامها على السلم، نهضت، اتجهت نحو باب الغرفة، وفتحتها بهدوء. أرهفت السمع، فلم أسمع ما يقلقني، انسللت خارجة وتركت الباب مُشرعاً ورائي كي لا أحدث ضجة لا حاجة لي بها. هبطت السلم بروية، وخرجت من الباب الأمامي للمنزل دون خوف، لأن السيدة هدرسون بلا شك ما زالت تحاول أن تهيب المرحاض لتلبية طلبي المُحرج. من المحتمل أنها سمعت صوت الباب الثقيل يُغلق خلفي. لكنني ركضت، ولم يكن موقف سيارات الأجرة يبعد بمسافة كبيرة.

بدا السائق مستاءً من أجرتي السيئة فنقدته عملة ذهبية وقفزت إلى عربته ذات العجلات الأربعة قائلة: «المتحف البريطاني!».

تجاوز هو كل دهشة أو مقاومة حين رأى العملة الذهبية في يده، ولبى أمري دون تردد. رفعت ياقة معطفي قدر ما أستطيع لأخفي وجهي. مسحت دموعي بيدي. (لقد أضعت منديلي في مكان ما). لا مزيد من البكاء، أمرت نفسي، أنا أفعل شيئاً خطيراً، وأحمق بالطبع، وعليّ أن أحافظ على رباطة جأشي.

قطعت السيارة طريقها إلى المتحف البريطاني.

لم أخرج من السيارة، بل نظرت من نافذتها الضبابية. لم أمانع التجسس على أخي شارلوك الذي يتسكع أمام واحد من أعمدة المتحف، يدخن سيجارته، ويبدو مثلاً للكسول غير المبالي. بلا شك سيأتي إليه عسكري الليل ليأمره التحرك من تلك المنطقة. أما عن أمي، لم أر أي علامة لوجودها. إذا جاءت الرسالة منها - إذا تم اعتراضها من شارلوك لكن لم يرسلها - إذا ظهرت أمي، إذا من الجلي أن أخي لن يتسكع في مكانه.

زفرت مرتاحة، وابتسمت. كُنت محقة طوال الوقت. أمي آمنة في مكان ما في الريف، وشارلوك كان يحاول التفوق على أخته الصغرى المشينة. حين يعود إلى المنزل سيكتشف من منا الأكثر ذكاءً.

حثني سائق الأجرة قائلاً: «آنسة؟».

أخبرته: «تحرك».

طوال تلك الأمسية، مستمتعاً بدفع النار المشتعلة في المدفأة، كنت أبجل كُتيب الشفرات القابع في يدي. يا له من نعيم، أن أرى مجددًا الصفحة الأولى المألوفة التي ذهبت بخط يدي أمي، وحروفها:

ALO NEK OOL NIYMSM UME HTN ASYRHC

وقد أضاف شارلوك إلى الصفحة سطرًا جديدًا بالقلم الرصاص هو حل الشفرة: «إينولا انظري في أفحوانتي».

في الصفحة التالية، المزخرفة بأزهار البنفسج، كتب شارلوك: انظر داخل شقائق النعمان الخاصة بإينولا. وهكذا. تمكن شارلوك من حل شفرة تلو أخرى (إينولا انظري داخل مقابض سريري). في الواقع، لقد تمكن من فك شفرة كل الرسائل، بعضها لم أفصح أنا في الوصول لحلها. في صفحة مزينة برسومات الفطائر المحلاة كُتب: قلوب الآخرين تروح بك إينولا، انظري في مرآتي. تساءلت أي مرآة تقصد، ربما وجد أخي خلف المرآة أكثر من مجرد دعم مالي؟ ربما ملحوظة من أمي، تعبر عن ندمها، أو وداعها، أو مخاوفها، أو حتى... لكنني توقفت قبل أن أُلْفِظ «عن جها». أمي لديها أشياء أهم لتفعلها. كانت امرأة لها شخصية، وعقلية ومبادئ. مناصرة لحق المرأة في الاقتراع، لا يكل إخلاصها للأمور التي تخص العدل بين الجنسين. مفكرة حرة. فنانة. فنانة مبدعة، والدليل الزهور الحلوة - لنختر كلمة أخرى - الخلابة التي تزين كتبها.

أثنت على رسومات أمي، لكن سرعان ما تحول انتباهي لملاحظات أخي. لقد كتبها بقلم رصاص بالكاد يرى لدرجة جعلت من السهل عليّ مسحها، هكذا سيعود كتيب التشفير إلى حالته الأولى. لكن، ولدهشتي،

اكتشفت أني أريد الحفاظ على مداخلات شارلوك. أردت أن أملك شيئاً من أخي، حتى وإن كانت ملاحظاته القليلة أسفل كلمات أمي.

في رأيي، خط اليد يشي بالكثير عن شخصية المرء سواء الظاهر منها أم الخفي. كُنت أفكر في أخي شارلوك المحقق العظيم، الأمر والقيادي، لكن خط يده كان أصغر من خط يد أمي. لم يعتبر نفسه كبير المقام. ربما في الواقع كان خجولاً بطريقة ما، مثلي.

من الممكن أن نضع خط يد أمي - وهذا منطقي للغاية - في مصاف الفن. لكنني فكرت أنها تعكس آمالها، مثاليها، وأحلامها. لكن في كتابة أخي لم أر أثراً للأحلام. كان الواقعية الكاملة لعالم.

حذرت نفسي، قد تُظهر رسالة مكتوبة، وليست مطبوعة، لصديق الكثير مما في القلب. يمكن أن يملك الشخص أكثر من طريقة للكتابة. انظر إلى الليدي سيسلي.

ربما ليست المثال الأفضل. طريقة كتابتها تختلف كثيراً. رسائل كُتبت بخط منمق متواضع وسليم، وأخرى كُتبت بخط ضخّم طفولي بل ومعكوسة الحروف.

وفجأة، وأنا مستلقية نصف ناعسة أمام النار دون أدنى فكرة لتحقيق أي شيء، أو دافع لإيجاد أحدهم، قفزت إلى ذهني ذكرى عن مكتب الليدي سيسلي. كما لو أضاء في عقلي مصباح سحري يعرض صورة متحركة: رأيت أدوات الكتابة الخاصة بالليدي الجميلة.. موضوعة إلى اليسار.

وأنا أتذكر بوضوح شديد رؤية لي لي، الخادمة المخلصة، تحرك الأدوات إلى اليمين.

صنعتني صدمة المعرفة فأيقظتني. انتصبت جالسة متسعة الحدقتين.

على طاولة الزينة الخاصة بي، وضع مشطي المتواضع، وفرشاة الشعر، وعلبة كريم اليد، وغيرها من الأغراض على الجهة اليمنى، بالطبع، لأنني.. أستعمل يدي اليمنى.

لكن كيف وضعت أغراض الليدي سيسلي على طاولة زيتتها الفضية؟

همست: «يا إلهي!».

الفصل الحادي عشر

«الماء الساخن آنسة ميشل!».

هكذا استيقظت بعد بضع ساعات من النوم على صوت مالكة المنزل الصائحة. تلاشت مشاعر الانتصار على أخي شارلوك خلال المساء، وحلّ محلها الخوف من العواقب المحتملة.

«آنسة ميشل، هل استيقظت؟»، شوشتني المرأة الصماء، بالتأكيد لم تسمع إجابتي الهادئة المتحضرة. شعرت بعدم ميل للنهوض والذهاب إلى العمل. ويظن القارئ أنني قادرة على الاستلقاء في السرير لأن شروط عمل الأنسة ميشل مع الدكتور راجوستين كانت متساهلة للغاية، لكن ما كنت لأستطيع الاستلقاء خلال النهار في مسكني دون أن أثير فضول صاحبة المنزل.

دقت السيدة تابري الباب بعنف قائلة: «آنسة ميشل!».

تمتتم في ضجر نفسي: «يا إلهي!»، قبل أن أقول بصوت مرتفع: «أنا مستيقظة!». «ماذا؟ هل نهضت؟».

«بلي! أشكرك سيدة تابري!».

بالتأكيد وجبة الإفطار اليوم ستكون السجق الأحمر. أبغض السجق الأحمر. في هذا الصدد، وفي أمور أخرى، تؤكد الأنسة ميشل أنها تعمل في إطار عقلي مدمم.

يوم أمس (ربما من حسن الحظ) لم أملك الوقت لأفكر في أخي شارلوك، لكن الآن أدركت الخطر الذي يمثله، لأنه يعرف أكثر مما ينبغي.

لقد عرف اسمي المستعار والدليل رسالته: إيفي قابليني على عتبات المتحف البريطاني.

يعرف، كما قال الدكتور واتسون، أني أملك النقود.

يعرف مراسلاتي المشفرة مع أمي، وقام بفك شفراتها.

والأسوأ، أنه قد يعرف المزيد في أي لحظة من صديقه المذكور سلفاً دكتور واتسون. لنفترض أن أخي رضخ عن كبريائه لواتسون وأسر له بما في نفسه! ولنفترض أن واتسون وقتها اعترف له بزيارته للدكتور راجوستين! في حوار واحد بسيط، يمكن أن ينصب اهتمام شارلوك هولمز بالكامل على إيفي ميشل.

«اللعنة!»، تمتتم وأنا أدلف إلى مكنتي. «اللعنة على كل شيء»، لنفترض أن الغربان تصبح بيضاء!، وأنا أجلس جوار المدفأة، دفعت الخوف عن عقلي إن لم أدفعه تمامًا عن جسدي المرتعد. ارتشفت الشاي، قرأت صحف الصباح المليئة بكل الصدمات والأفطاع المعتادة: هددت عصابة مناهضة للتطعيم الإيست إند مرضية المنطقة، تم اعتقال عدد من العاملات في المجال الخيري في شارع هوليويل لتوزيعهم مواد «إباحية» حول «الفحوص الوقائية» للولادة. انفجار جلاء الغاز يدمر منزلًا في نايتسبريدج، قتل جلاء ثلاثة من الخدم، وتسبب في مصاعب كبيرة للعائلة، يُشاع أن عمال الميناء يعقدون اجتماعات سرية ذات طابع تخريبي، استمرار تراجع الزراعة بسبب الذرة الرخيصة المستوردة من أمريكا... إلخ. لكنني لم أجد أي رسالة من أمي. هذا أربكني.

الطقس بارد، هذا ما أخبرته نفسي لأبرر رجفتي. تضاءل حجم النار بشكل ملحوظ خلال الوقت الذي استغرقتة أقرأ الصحف. ألقيتها جميعًا داخل النار لتستعر من جديد، وفي هذا الدفء المؤقت -والانتصار- سرت إلى مكنتي. أخي شارلوك قد يذهب إلى عالم فراسة الدماغ، وحينها لن أستطيع أن أفعل شيئًا حيال أمي، لكن إذا شئت أن ألقب نفسي بمحقق، عليّ أن أبدأ العمل.

جذبت حزمة من أوراقى وبسرعة رسمت أشكالاً مختلفة بقلمى الرصاص لوجه الليدى سيسلي. على إحداها رسمت قبعة واسعة الحواف، على الأخرى رسمت غطاء رأس «غجرياً»، وعلى الثالثة رسمت قبعة من القش، وعلى الرابعة رسمت قبعة صغيرة لها ريشات متطاولة على غرار أحدث الصيحات، وعلى الأخيرة رسمت وشاحاً أصم. خفت النيران مجدداً، وازداد البرد في أنحاء الغرفة. ارتجفت، تجمدت أصابعي لدرجة عجزت عن حمل القلم، لكنني لم أتخل عن الرسم. رسمت الليدى سيسلي بشعرها ملفوفاً على هيئة كعك دون قبعة، ثم رسمتها وقطعة من القماش لفت حول رأسها، ثم رسمت الرأس يعلوه غطاء رأس لخادمة، ثم مجدداً كذيل الحصان، وأخيراً بحجاب. أنهيت رسمى راضية، ثم ضغطت على الجرس.

حين ظهر الفتى المتحمس قلت: «جودي، هل تُعيد إضرام النيران إذا سمحت؟». هرع ليفعل ما أمرت. بينما نهضت عن المكتب تاركة الرسومات على سطحه حيث يستطيع أن يراها حين يعود حاملاً الفحم واتخذت مقعدي مستلقية بجوار ألسنة اللهب المرحبة. شاهدته خلصة بطرف عيني. نظر إلى الرسومات، ثم توقف محققاً، شاهداً بتركيز شديد لدرجة أنه لم يلحظ استدارتي نحوه لأرى ما يفعل.

نهضت لأقف إلى جواره وسألته: «هل ما زلت تميّزها؟». أوماً دون تحفظ. سألته مجدداً: «متى رأيتها؟».

«لا أعرف تحديداً، آنسة ميشل».

«العام الماضي؟».

«لا! منذ أسبوع أو أسبوعين».

«في زاوية شارع. تحمل سلة؟».

«أجل».

«ماذا كانت ترتدي؟».

أشار إلى رسمة فتاة تضع خرقة حول جرح على رأسها. تمتت: «حقاً؟». وأدهشتني نفسي لأنني نسيت أي أسئلة أخرى يمكن طرحها. في الواقع شعرت بالضعف.

ما يرتديه المرء حول رأسه، يُحدد مكانته في المجتمع، كما لو كان يضع لافتة حول عنقه.

وفي تلك الحالة، بدت اللافتة التي تضعها الليدى سيسلي تقول: «فقيرة للغاية».

الكثير من نظرتي يؤكد أنها -مثلي- تحاول مساعدة فقراء لندن. لكن ما يبدو لي الآن أنها انضمت لصفوف الذين يعيشون في الفقر.

بعد عدة ساعات، ذهبت السيدة راجوستين مرتدية فستاناً أزرق باهظ الثمن منزل البارون السير أوستاس أليستير.

لكن عوضاً عن الذهاب مباشرة إلى الباب، وقفت على الرصيف أدرس مسكن البارون. بينما المنازل في الريف تُبنى أفقياً، الزحام في لندن يجعل من الضرورة أن تكون خطة البناء رأسية. فيقع المطبخ في الطابق السفلي، وغرفة الطعام في العلوي (يخدمها نادل غيبي)، غرفة الرسم في الأعلى (بعيدة عن ضوضاء الشارع)، غرف النوم في الطابق الثالث، وغرف دراسة الأطفال في الطابق الرابع، ثم في العلية تقع غرف الخدم.

من زيارتي الماضية عرفت أن غرفة نوم سيسلي كانت تقع في طابق الأطفال، أي أسفل غرف الخدم مباشرة. هززت رأسي في حيرة وأنا أدرس المسافة بين الأرض وطابق غرفة سيسلي. ثم، متذكراً ضرورة التصرف كسيدة نبيلة أحجمت عن السير بخطوات سريعة، ودورت حول المنزل لأرى إذا كان الوضع أفضل بطريقة

أو أخرى.
لم يكن أفضل بالطبع. وبينما كنت أنظر إلى نوافذ غرفة الليدي سيسلي، توقف عدد من الخدم المذهولين عن أعمالهم وحدقوا فيّ.

لمحت صبيًا صغيرًا يكافح في حمل دلاء فقلت امرأة: «أنت! تعال إلى هنا».
بالطبع أطاعني على الفور، حتى وهو لا يعرف من أنا، أطاعني فقط لأنني تقمصت طريقة الطبقة الحاكمة، كما ارتديت ثيابهم.

حين وقف أمامي سألته بصوت خفيض: «السلم الذي استخدمته الليدي سيسلي لتهرب.. أين هو؟»، بالتأكيد السلم داخل المنزل، لأن لا يستطيع أحدهم أن يحمل سلمًا كذلك عبر لندن خلال الليل دون أن يلحظه أحد.

عجز الفتى عن الكلام بسبب سؤال الصريح عن أمر محرم الحديث فيه، ثم دون كلام أشار نحو جراج العربات الخشبية، الذي كان كبيرًا كفاية ليوفر مأوى لعدد من الأسر الأقل حظًا من الأغنياء أمثال البارون. في الجراج، رأيت عربة بديعة الصناعة يعكف ثلاثة رجال على تلميعها. أو كانوا يفعلون، قبل أن يصعقهم ولوجي.

اتجهت نحوهم امرأة: «أروني السلم».
أحدهم، الذي يُفترض أنه يتمتع بأكبر قدر من الحضور الذهني، قادني إلى حيث أريد وأشار إلى الأعلى حيث السلم يستند على العوارض الخشبية. سلم خشبي قوي. له أربعة أقسام. أي قسم منهم سيكون ثقيلًا جدًا لدرجة ألا أستطيع حمله، ومستحيل أن أحركه من مكانه دون مساعدة.
والأقسام الأربعة يجب أن يُحكم ربطها معًا ليصل طوله إلى نافذة الليدي سيسلي.
«أشكرك». قلتها وسرت مغادرة كما دلفت دون أي تفسير.

تشتت أفكاري كالعادة. توقفت، نظمت أنفاسي، واستحضرت وجه أمي في ذاكرتي لأهدئ من روعي، ثم دنوت من باب المنزل وطرقته.

ذكرت نفسي حين شرع الباب عن وجه رئيس الخدم، تظاهري بالبلاهة. زوجة دكتور راجوستين الصغيرة، خجولة، أنيسة، وساذجة للغاية. كان من السهل جدًا في تلك اللحظة أن أشعر بالبلاهة.
انتظرت الليدي ثيودورا خلال تلك الزيارة على رأس السلم، وانتظرتني رسميًا في غرفة الرسم، مما صعب عليّ أن أنقل إليها الأفكار الأكثر غرابة وغير المنتظمة في ذهني. كما فعل فستانها المكون من ثلاثة أقمشة: صدرية سوداء، وتنورة بنفسجية، وجورب رمادي من الحرير. ذلك الزي بالإضافة إلى قلاذتها الثقيلة من الأحجار السوداء اللامعة عوضا شحوب وجهها المليح. شعرت بسبب ألوان فستانها أنها في حالة حداد، كما لو كانت ابنتها الليدي سيسلي توفيت منذ بعض الوقت.

برأس مشرب ونظرة باردة زينت وجهها الأبيض، وقفت الليدي ثيودورا لتُحييني، لكنني لاحظت أنها فقدت الكثير من الوزن خلال الأيام القليلة التي مرت على لقائنا الأول. عبرت الغرفة نحوها، وبدلاً من التلطف بأي تحية مهذبة اندفعت قائلة: «عليك ألا تفقدي الأمل يا سيدتي!».

لوهلة تجمدت، لكن بعد ذلك انهارت كما قطعة جليد تذوب تحت شمس الربيع. قالت منتحبة وهي تمد يدها إلى يدي، «أواه يا سيدة راجوستين!»، جلسنا على مقعدين متقابلين، تكاد الركبتان تتماسان: «أواه يا عزيزتي السيدة راجوستين، أعرف أن عليّ الاستمرار في انتظار الأفضل، ولكن كيف يمكنني ذلك، وأنا لا أملك أي أخبار على الإطلاق عن ابنتي؟».

انحنت نحوي وبحرص أكبر قالت مرتجفة: «هل عثر الدكتور راجوستين على أي دليل، أي علامة، أي خيط إلى عزيزتي المفقودة سيسلي؟».

أجبتها بحذر: «ربما هناك بعض المؤشرات».

«حقاً!»، أخفت بإحدى يديها حلقها وهي تعب الهواء بصعوبة بسبب المشد الذي أحكم قبضته عليها نظير ارتدائها هذا الفستان اليوم. جعل مشدها البائس هذه المحادثة أكثر صعوبة خشية أن تصاب بالإغماء.

تمتت: «الدكتور راجوستين يرى أنه من الأفضل أن أقابلك بدلاً منه للمرة الثانية، بداعي اللياقة».

«نعم بالطبع، أتفهم ذلك. لكنني بدأت أخاف...».

«أؤكد لك أن الدكتور راجوستين يهتم بالقضية بأقصى ما لديه».

«بالطبع».

«طلب مني أن أسألك عن شيء».

«أي شيء!».

مجدداً شبكت كلتا يديها. أخذت نفساً عميقاً - كنت قادرة على فعل ذلك لأنني ارتديت مشدداً لا يكتم أنفاسي - وسألت: «هل كانت الليدي سيسلي عسراء؟».

سؤال سهل بسيط، هذا ما يظنه المرء. ولكن ليس حين يُسأل لامرأة من أسرة أرستقراطية.

جذبت الليدي ثيودورا يدها بعيداً وقالت: «بالطبع لا! ماذا تقولين.. ابنة بارون عسراء؟».

كنت قد خمنت ردة فعلها لذا أعددت نفسي لها. لم أتفاعل مع غضبتها أو صدمتها، بل قلت بصوت خفيض: «بالطبع ليس الآن يا سيدتي». كنت أكذب لأنني صدقت أن الفتاة استخدمت يدها اليسرى دون

دراية الأم. ثم أضفت: «لكن حين كانت الليدي سيسلي أصغر سنًا.. لا يمكن من المرء أن يتوقع من رضيع التزامه بالتقاليد، أليس كذلك؟ آنذاك هل أظهرت أي ميل لاستخدام اليد اليسرى؟».

أشاحت الليدي ثيودورا بوجهها بعيداً عن نظرتي الوديعه ولكن المباشرة. نظرت إلى السجادة البنفسجية ذات الزهور المنقوشة وقالت: «ربما سبق لمربيتها أن ذكرت شيئاً من هذا القبيل».

«هل سبق وعلقت معلمتها على الأمر؟».

«لم؟ أنا - من الصعب التذكر - إذا مالت الليدي سيسلي لاستخدام اليد اليسرى من قبل، فقد تم تهذيب هذا الميل بالطبع».

كان هذا اعترافاً مهماً أصابني بقشعريرة امتدت لعمودي الفقري، ولسبب لم تفهمه الليدي ثيودورا. لا شك. ربما كنت سأتابع نهجها إذا لم أنشأ في بيئة تتمتع فيها بحرية لا نظير لها. لكن لأنني نشأت رفقة امرأة

أمنت بترك الأمور تسير على طبيعتها، تخيلت كيف كان الوضع بالنسبة لليدي سيسلي؛ أناملها الصغيرة صُفعت حين حاولت استخدام اليد «الخطأ»، سُلبت ألعابها من يدها اليسرى لتوضع عنوة في يدها اليمنى،

ربما قد تم ربط يدها اليسرى حين آن وقت تعلم الكتابة، طوال فترة دراستها بالتأكيد قد تعرضت للضرب والتوبيخ مرات كثيرة، أو ربما ضُرب ذراعها الأيسر بالعصا.

وعلاوة على كل تلك العذابات التقييدية، خضعت للصرامة المعتادة لتصبح زينة في مجتمع الطبقة العليا. مشيت برأس منتصب لتبدو في وضع مثالي. تعلمت التطريز - بيدها اليمنى - وأن تكون «على دراية بجميع

الحرف اليدوية» أيضاً بيدها اليمنى، كما تعلمت الرسم بالألوان الزاهية الحلوة.

لكن هل يمكن أن تكون يدها اليسرى هي من كتبت تلك الحروف الكبيرة القائمة في مذكراتها؟ ويدها اليسرى هي من رسمت بالفحم تلك الرسوم القوية؟

ذكرت لي أمي من قبل -تبدو أيام الطفولة الجامعة الحرة في فرندل هول بعيدة الآن رغم أن سنة واحدة قد مرت- بينما نقرأ قصة «الحالة العجيبة للدكتور جيكل والسيد هايد» التي تذكرها بدراسة للعقل البشري بدأت مؤخرًا في ألمانيا، حيث حاول «الأجنب» فهم الأشخاص المجانين بشكل أفضل عن طريق مفاهيم مثل «الفكرة الثابتة»، و«الشخصية المزدوجة» وغيرهما.

أوضحت لي فكرة «الشخصية المزدوجة» من خلال طي ورقة فوتوغرافية طويلة من المنتصف تمامًا، ووضعها على الوجه مباشرة، ثم توجيه كل نصف نحو المرأة ليظهر وجه جديد، مختلف عن الوجه الحقيقي. هل يمكن أن تملك الليدي سيسلي شخصيتين؟ هل يمكن أن تكون السيدة التي تكتب بيدها اليسرى مختلفة تمامًا عن التي تستخدم يدها اليمنى؟

الفصل الثاني عشر

قضيت ما تبقى من اليوم في إطار ذهني كتيب. كيف يمكن أن أكون بهذا الغباء؟ في البداية بدأ تفكيري أن الليدي سيسلي ستفعل نفس الأفعال التي يمكن أن أفعالها. مثل: الشفقة على فقراء لندن. اعتقاد خاطئ.

أو تهرب.

اعتقاد خاطئ أيضاً.

أو ترفع سلماً ضخماً ثقيلًا.

غير منطقي.

كنت حمقاء! السلم كان أول شيء يجب أن ألقى نظرة عليه، وكان يجب أن تثير الفساتين التي رأيتها في خزانة الملابس تفكيري في وقت أقرب. يا لها من سخافة تلك التي اقتنعت بها أن الليدي سيسلي قادرة على أن تضع السلم عند النافذة بنفسها. أشك أنني كنت قادرة على فعل ذلك، بغض النظر عن مدى رغبتني في فعل ذلك.

وأيضاً ليس لدي أي دليل أن الليدي سيسلي عزمت على فعل ذلك.

لم يكن لدي أي سبب لافتراض أن أيًا من أفكارها أو ميولها كانت أقل شبهاً بأفكاري.

كنت عمياء.

ووصفت نفسي بخيرة العثور على المفقودين؟! عليّ أن أبذل جهداً أكبر. كان عليّ أن أروض عقلي الضال. إذا جاز التعبير، تطبيق المنطق الصارم. أن أحل تلك المعضلة عن طريق المنطق.

وفقاً لذلك، بمجرد أن وصلت إلى مسكني تلك الليلة، جلست إلى المكتب المتحرك في غرفتي، وأشعلت شمعة لتضيء الورق.

حسناً. ما هي الاحتمالات بشأن اختفاء الليدي سيسلي؟ لا يمكنني سوى التفكير في ثلاثة:

هربت لتتزوج سرّاً.

فرت من المنزل.

خُطفت.

كتبت عند نقطة «هربت لتتزوج سرّاً»:

أسباب تعضد الحجة: السلم المستند إلى النافذة.

مراسلاتها السرية مع ألكسندر فينش.

مقابلاتها السرية مع الشخص ذاته.

أسباب لا تُعضد الحجة:

لم يرد أي حديث في مذكراتها عن شغف مستعر لألكسندر فينش أو بالأحرى استخدام الشمع الرمادي لغلق المظاريف.

نامت في سريرها، لماذا؟

لم تُفقد أي ثياب من الخزانة.

لم يُعثر حتى الآن عن الليدي.

من المستبعد أن يثير ألكسندر فينش إعجاب الليدي.
ترددت بشأن النقطة الأخيرة لكونها تعتمد على التقييم الشخصي أكثر منه التقييم العقلاني الصارم، لكن في النهاية تركتها لأتمكن من المضي قُدماً في سرد استنتاجاتي.

هربت:

أسباب تعضد الهرب:

شعرت شعوراً عميقاً نحو مشاكل المجتمع وضرورة إصلاحها، والدليل على ذلك مذكراتها.

حافظت على شخصيتين، الرمادية في مقابل الزاهية.

كسرت ألوانها الزاهية. استنتاج: هي تأنف أن تستمر في هذه الشخصية.

أسباب تدحض الفرضية:

مَن ساعدها على الهرب؟ لا يمكن أن تضع السلم عند النافذة بنفسها.

فيم استخدام السلم؟ من الممكن أن تغادر من الباب.

لم نامت في سريرها؟

ماذا كانت ترتدي؟

هممم..

ما زلت لا أشعر بالكثير من الحكمة. اعتمدت طريقة التفكير نفسها مع الاحتمالية الثالثة.

تم اختطافها: أسباب تعضد النظرية:

سلم عند النافذة. في حاجة كونه وسيلة الوصول الوحيدة.

نومها في السرير. أحدهم قطع نومها.

لم تُفقد أي فساتين. تم اختطافها في ملابس النوم.

ارتعدت وأنا أتخيل رجلاً شريراً يختطف الليدي سيسلي من مضجعها في منتصف الليل. يا له من أمر

مفزع. وكلما فكرت فيه بدا ممكناً. في الواقع، متسق أكثر مع الواقع من الفرضيتين السابقتين. لكن مجدداً

هناك اعتراض.

أسباب تدحض النظرية:

لم تصرخ؟ أو لم يسمعها أحد؟

كيف يمكن حملها إلى أسفل على السلم؟

لم تم اختيارها لتكون الضحية؟ ومن اختارها؟

لم تطلب فدية؟

فيما يتعلق بالسبب الأول يمكن تفسيره أن الخاطف، أو الخاطفون، أفقدوا الليدي وعيها قبل أن تتمكن

من الصراخ، ربما باستخدام الكوليفورم.

وفيما يتعلق بالفدية واختيار الضحية، من المحتمل - فقط من المحتمل - أن الليدي سيسلي اختُطف في

سبيل غرض آخر شائن أفضل ألا أذكره. في الواقع أنا بالكاد أفهم ما يسمى «الرقيق الأبيض». بدت لي

الفكرة شديدة التعقيد.

أما الفكرة الثالثة، فكيف يمكن حمل سيدة فاقدة للوعي هبوطاً على ذلك السلم الطويل؟ سمعت أن

رجال الإطفاء يمكنهم أن يحملوا الأشخاص على كتف واحد ويهبطوا مسافة قصيرة بتلك الطريقة، لكن

حتى أقوى الرجال لا يمكنه أن يفعل ذلك هابطاً من الطابق الرابع - هذه مخاطرة كبيرة. حماقة، في الواقع غباء. لم لا يستخدم سلام المنزل بكل بساطة؟

لكن أظهرت الأدلة بوضوح أن هذا لم يحدث. وأن أبواب الطابق الأرضي بقيت مغلقة، وكذلك أقفال النوافذ. ربما أنزلها من غرفة نومها مستعيناً بحبل؟ والسلم؟ النافذة الأمامية؟ صعب، لأن أسفله مباشرة هناك القبو ومصرف المياه. أما بشأن النافذة الخلفية، فتحتاج أن يقوم بالعملية خاطفان، أحدهما سيهبط ويزيح السلم بعيداً، بينما الآخر سيُنزل الليدي فاقدة الوعي، ثم يُعاد السلم إلى مكانه ليتمكن الآخر من الهبوط. ثم يحملان الجسد الخامل بعيداً.

يا له من سخف.
«هما»؟ «مَنْ» هما؟

ومن المؤكد أن مثل تلك الأفعال المعقدة سيلاحظها ضابط النبطجي الذي يقوم بدوريات كل بضع دقائق في هذا الحي الراقي.

كلفني تطبيق المنطق الصارم الكثير. قاذبي نحو أسخف الاستنتاجات. من الاحتمالات الثلاثة - فرار الليدي سيسلي للزواج، هرب الليدي سيسلي، وخطف الليدي سيسلي - لم يبد لي أحدهم أقل سخفاً من الآخر. لا شيء يبدو منطقياً.

أنا حمقاء، ولست محققة.

ألقيت بالأوراق التي كتبت عليها ملاحظاتي في النار، نهضت، وقررت أن أعود لعادتي. في هذه الليلة، التعرض للكآبة مرة أخرى أصبح أفضل من الشعور بعدم الكفاءة.

في تلك الليلة بعد أن انسحبت السيدة تابر لغرفتها، تسلفت الأخت مرتدية ثيابها السوداء وحجابها الكثيف لترى ما يمكنها أن تفعله لمساعدة فقراء لندن.

كان ضباب لندن الشهير أكثر كثافة في تلك الليلة لدرجة أن المشكاة التي أحملها في يدي بدت تطفو كشبح يتراقص أمامي. في ليالٍ كنتك، أو حتى في وضوح النهار حين يتحول الصباح إلى البني الداكن، يضطر أصحاب العربات الأجرة للهبوط من مقاعدهم والسير أمام الخيول، والصيادون أحياناً يضطرون إلى العودة لأرصنة نهر التايمز كي لا يغرقوا.

في حين أن المشاة العاديين يسقطون ضحايا الاحتيال. في هذه اللحظة من المحتمل أن هناك سفاخاً يقطع الحناجر يقف على مسافة ستة أقدام من موضعي وأنا عاجزة عن رؤيته. أو ربما يخنقني...

جعلتني الفكرة أرتجف ولم يرجفني البرد القارس، ارتجفت لذكرى القوة التي قبضت عليّ من الخلف، ضغطت على عنقي وخنقتني.. ثم تلاها الظلام، ثم عادت الذاكرة تستعيد ذكرى ضبابية لرجل فظ يرفع عني حجابي، قبل أن أفر منه. مروعة تماماً تلك الليلة، أحلك ذكرياتي، شيطانية تماماً كآلة التي كبلت حنجرتي.

حاولت دفع الصورة عن ذهني. ليس الوقت المناسب ليصيني هذا النوع من الفزع، ليس بين ظلال ليل لندن الطائفة حولي. كنت أبحث باستمرار عن أي إشارة لخطر يحوم حولي، سرت غير باحثة عن التعساء في تلك الليلة، ولكن لأقطع المسافة لوجهة بعينها. لم أستطع تحويل مخاوفي لفترة طويلة. لكن أخبرت نفسي أن العديد من سكان لندن ماتوا فقط بسبب استنشاقهم للهواء، أكثر من الموتى جراء حوادث قتل. استنشاق الهواء الذي يحيل الأنف والعين إلى السواد لا يمكن أن يكون صحيحاً. بإمكانني تحمل ذلك. لقد نشأت

أستنشق الهواء النظيف في الريف. لكن ماذا عن أولئك المولودين في هذا الضباب، يموتون ويموتون في تلك الشوارع القاتمة؟ فقراء لندن، كما ذكرت، سُرعان ما يموتون.

لا يمكن للمرء أن يحقد عليهم احتساءهم الجين.

يتجمعون معاً للبقاء على قيد الحياة في تلك الليالي، حتى أفقر الناس يمكنهم الاستيلاء على زجاجة من الجين، بمساعدتها يتحملون الليل قارس البرودة.

في الصباح هم لا يثقون في الأغراب، لكن ليلاً تنحل عقدة ألسنتهم بسبب الشراب. أو من أن تلك الحقيقة تفسر سبب عادي الليلية.

كنت محملة بإمداداتي المعتادة، وأسرعت نحو الملجأ حيث تمضي النساء المسنات المعوزات اللواتي يُطلق عليهن «المشرذات» أو «الزاحفات»، أيامهن ولياليهن على الدرجات الحجرية. وبحكم العرف القديم، سُمح لهن هذه الرحمة الصغيرة، بدلاً من أن تبعدهن الشرطة كما هو الحال مع الكثير من المتسولين العاديين. يا للمساكين العجائز، كُن ليحرقن قمامة الشارع في سبيل التدفئة.

بالقرب من زاوية الملجأ، توقفت، مصعوقة. رأيت على درجات الملجأ حوضاً معدنياً كبيراً تحترق داخله نار هائلة. لن يكون لي حاجة اليوم في إشعال أجهزة الإضاءة المعدة يدوياً التي اخترعتها.

وبدلاً من رؤية النساء العجائز المرتجفات مجتمعات تحت البطانيات التي أعطيتها لهن، رأيتهن مجتمعات حول النار، ووجوههن الهزيلة تبتسم.

وبرفقتهن رجل.

رجل عجوز منحني الظهر، يشبههن، شعره الرمادي الطويل قذر أشعث ولحيته المرسله تفتقر إلى النظافة، وملابسه الرثة أكثر اتساخاً. أنموذج للفقراء. لكنه حصل على وقود من مكان ما ليشعل تلك النار المتقدة، وكذلك الوعاء الذي ضم النار. كما لمحت زجاجة من الجين. ولسبب ما اختار الرجل أن يجلب تلك الأغراض ها هنا.

بالقرب منه وقفت أكثر النساء المشرذات إثارة للشفقة، جسد نصف عارٍ ورأس ينهشه مرض الثعلبة، متدثرة بالمعطف المضاد للماء الذي منحته لها إيفي ميشل منذ يومين. المعطف ذاته كان من قبل ملكاً لامرأة تباع مساحات الأقلام.

«أختاه!»، نادى حين رأيتني أدنو، صوتها مفعم بالحيوية، لكن يشوبه الكحول. «أختاه، لتشري كأساً من الجين!».

لم أكن في حاجة للرد، لأن الأخت المشححة بالحجاب الأسود لم تتحدث قط. ولم يكن من الضروري أن أرفض ضيافتها، لأن المشرذات كن معتادات على أساليبي.

في صمت بدأت في توزيع الخبز وخلافه من الأشياء التي تقبلتها السيدات الفقيرات بحماس كاف لكن ليس بنفس اليأس والحاجة المعتادة منهن في الظروف العادية.

«.... أرملة، امتهنت الخياطة حتى خبا ضوء عيني»، قالتها السيدة في المعطف الواقى من الماء للرجل العجوز الذي سأها أن تقص عليه قصتها. ولأنني كُنت عاجزة عن طرح هذا السؤال بسبب «صمتي المتعمد»، استمتعت بفضول كبير وأنا أتظاهر أنني لا أفعل. «ثم جربت بيع الزهور أمام المسرح، لكن كما تعرف حين تُمطر لا يتوقف الناس لشراء الزهور لزوجاتهم. مع ذلك كنت أقف في المطر وأسعل بشدة، استمر الحظ العثر حتى طُردت من غرفتي، وفي ليلتي الأولى في الملاجئ العامة، سلبتني روح شريرة لا قلب لها ما تبقى من أموالى وكُل ملابسي. حدائي، ثوبي، ومزري، و... في الواقع كل شيء، عدا ثوب نومي.

وبكيت على هذا وذاك دون جدوى. وهكذا وصلت لتلك الشوارع، جوعانة وأرتعد من البرد، لأنه كيف يمكن أن أعثر على مهنة دون أي ثوب يكسو جسدي؟ لا»، قالتها رافضة كأسًا أخرى يقدمها الرجل وأضافت: «لن أحسبي مزيدًا من هذا، وإلا سأفقد وعيَّ، أكثر من المعتاد». في الواقع رأيت النساء المسنات يسقطن أكثر من مرة في محاولة للسير، في إشارة لمدى ضعفهن. قال الرجل: «لا سمح الله أن يُمدق هذا الحظ العثر بصغيرتي إيفي».

إيفي؟!

لم يجنبي شر كشف هويتي سوى التظاهر بأني لا أسمع ما يُقال. ربا، أو في الحقيقة لقد ذهلت. ولكن أشك أن أحدًا لاحظ ذلك في الظلمات وظلال النار المتراقصة.

ولم يكن الرجل العجوز الأحذب ينظر إليّ على أي حال بل للمسنة، أكمل الرجل: «حفيدتي الصغيرة، لا يزيد عمرها على أربعة عشر عامًا من عمر هذه الأرض القاسية. منذ بضعة أيام خرجت لتبيع ماحيات الأقالام»، بدأ قلبي يدق بعنف. «.. كانت الدموع تنزلق على وجنتيها، من فرط البؤس»، شعرت بأغرب انقباضة تقبض على صدري. «.. ومذّك لم نسمع عنها خبرا».

أردت الفرار. مع ذلك، كُنت أعرف أن عليّ ألا أبدي أي ردة فعل. فأخذت أوزع الطعام وأنا أتجه نحو الغريب.

غريب؟

بشكل ما، بلي.

قال بلهجة الطبقة الدنيا: «كانت ترتدي معطفًا واقياً من الماء يشبه تمامًا معطفك، إذا لا تمنعيني إخباري من أين...» قبل أن يتمكن من استكمال سؤاله، مددت يدي له بفطيرة لحم. التفت وقبلها. رأيت في الوجه القدر وأسفل القبة القدرة عينين رماديتين ثابتتين تنظران لي: «أشكرك». بذلت كثيرًا من الجهد العقلي لأذكر نفسي أنه غير قادر على رؤية أي شيء مني سوى الحجاب القاتم الثقيل.

سألني: «هل تتجولين في كل هذه الأجزاء من المدينة يا أختاه؟ أستمحك عذرًا، هل صادفك في الأنحاء فتاة نحيلة صغيرة تُدعى إيفي؟».

مددت يدي أقدم له الجبن. بينما استطرد: «طولها لا يناسب سنّها، لكنها نحيفة للغاية».

أخبرته إحدى النساء: «قديسة الشوارع لن تجيبك. إنها لا تتحدث قط».

ترأى لي شيء من تهذبه من بين لهجته المتسكعة وهو يقولك: «أعذريني.. شكرًا على الطعام أختاه».

بشكل ما كان صادقًا فيما يقول: أنا بلا شك أخته.

هذا هو أخي شارلوك.

الفصل الثالث عشر

في صباح اليوم التالي، وللمرة الأولى منذ زيارتها لشارع بيكر، عملت إيفي ميشل دون خوف. لم يعد هناك ما يخيف السكرتيرة، لأن شارلوك هولمز لا يبحث عنها، بل يبحث عن بائعة متجولة فقيرة ترتدي معطفًا واقياً من الماء.

لذا شعرت بحال أفضل، ثم شعرت بالسوء لأن أخي وصفني بفتاة نحيلة تبكي بخبث. هل يدرك أنني لا أحيًا في الفقر؟ هو يعرف أنني أملك النقود.

لكن بالتأكيد السيدة هدمسون أخبرته عن حالتي الرثة حين كنت أبكي لتدخلني إلى المنزل. أمر أربك كل شيء.

نيتي كانت استعادة كتيب التشفير، لم أدرك مدى تأثير هذه الأخبار عليه.

كيف.. كيف يمكنني أن أؤكد لأخي شارلوك وبطريقة آمنة أنني بخير؟

هكذا كانت أفكارني المضطربة وأنا أدلف إلى مكتب الدكتور ليسلي ت. راجوستين المحقق العلمي.

«صباح الخير يا سيدتي!»، قالها الفتى المتحمس وهو يأخذ معطفي. «قلت بشيء من الدهشة: «جودي، هل فكرت أن مديريك قد يغيرون يوماً ما اسمك السخيف هذا إلى جايمس، أو سيسل، أو أألجرونون، فقط ليلائم أهواءهم؟».

«لا يا سيدتي! أعني لا آنسة ميشل».

«هذا ما أقصده يا جودي. اسمي «آنسة ميشل» وهكذا أفضل أن تناديني. أرجو أن تتكرم وتجلب لي صحف الصباح وقدحاً من الشاي».

لكنني قرأت الصحف دون استمتاع، فأني لم ترسل أي رسالة. بالتأكيد سترسل غداً أو بعد غد.. ولكن أنا في أمس الحاجة لنصيحتها بشأن شارلوك. دون الاستفادة من حكمتها الكبرى، كيف يمكن أن أتخذ خطوة؟ هل أرسل لأخي خطاباً أطمئنه؟ ولكن -وهو ماهر بصورة مربكة- ماذا سأفعل إذا تبعني بشكل ما؟ هل أضع رسالة مشفرة في الجريدة موجهة له؟ ولكن إذا فعلت، وإن كانت مشفرة، سأجعل من مشاكلنا الأسرية مشاعاً للعلن. لا يمكنني المخاطرة بتدمير كبرياء شارلوك أكثر مما فعلت.

علاوة على ذلك، بالتأكيد أخي مايكروفت -الذي لم يشغل تفكيري حتى الآن- سيقراً رسالة كتلك، ويا له من عش دبابير سأفتحمه إذا فعلت.. لا يمكنني تخيل العواقب. لا أملك أدنى فكرة عما علي أن أفعله.

جلست إلى مكنتي بذهن مشوش، أنظر إلى مراسلات الدكتور راجوستين، أخذت أخربش على الورق صورة كاريكاتورية لأخي بقبعة قماشية ومقدمة رأسه المنكسة. شعرت بتحسن طفيف. دوماً حين أشعر بالتوتر أو الانزعاج، أحس بحاجة للرسم، لذلك أحصل على ورقة وقلم سريعاً وأبدأ في الرسم.

رسمت شارلوك مجدداً، ثم مايكروفت، ثم أمي، ثم آخرين.

أغلبها وجوه.

الفتاة ذات الأسفال التي مرت أمامي. المتشردات العجائز على أعتاب الملجأ. الليدي ثيودورا ترتدي جواهرها السوداء.

سار ذهني في مسارات مختلفة كما شاء له.

رسمت وجه ألكسندر فينش. ولدهشتي، رسمته بصورة ساخرة للغاية.

فليكن.

استرخيت في مقعدي، أغلقت عيني وحاولت أن أسترجع الزيارة إلى المتجر. تحدثت الذكريات في ذهني:

«... خليط من الألوان يراه البعض فوضويًا».

«كانت تقرأ داس كاييتال، وتناقشنا في استغلال الجموع».

«أرادت مني أن أريها البروليتاريا».

«ما أظنه أنها غادرت المنزل من الباب الأمامي ووضعت السلم بنفسها».

هل كان والد ألكسندر فينش يعتبره مجرد مخلول أو كان يدعو ولده «لا سلطوي»؟ أعرف أن المتيمين لمنهج اللا سلطوية متهمون بوضع عبوات ناسفة في محطة فيكتوريا، ومتهمون بالهجوم على مكاتب التايمز، لكن بخلاف ما أقرأه في الصحف، لم أعرف شيئاً عن أولئك القتلة الأغرب والمنظمات السرية.

هل اللا سلطويون أتباع للماركسية؟ لكن ألكسندر فينش أقنعني أن الليدي سيسلي ماركسية! إذا صدق، فلم لم تذكر شيئاً عن قناعاتها في مذكراتها الخاصة؟ لقد أكد لي أنها وضعت السلم أسفل النافذة بنفسها. لكنه بالتأكيد موثق أن هذا مستحيل بالنظر إلى طبيعتها الرقيقة وثقل السلم.

التقت الليدي سيسلي بألكسندر فينش.

تراسلت الليدي سيسلي مع ألكسندر فينش.

استكشفت الليدي سيسلي لندن مع ألكسندر فينش.

واختفت الليدي سيسلي.

بالتأكيد تلك الأحداث كلها ليست سلسلة من الصدف. مع ذلك فشلت الشرطة في العثور عليها عن طريقه، وهم يراقبونه جيداً - أو هكذا يدعي.

يا لي من حمقاء أن أتقبل تأكيده لي، وتأكيد الليدي ثيودورا، أنه يخضع لمراقبة وثيقة. ما مقدار ما أعرفه بحق عن ألكسندر فينش؟ قليل جداً.

نهضت عن مكثبي عازمة على الذهاب للتحديث معه مجدداً. مع ذلك، هذه المرة، لن تذهب إيفي ميشل تلك المرة للمتجر. بل ستذهب السيدة راجوستين. أو ليس السيدة راجوستين، لأنني اليوم ارتديت فستاناً صباحياً من الستان، ولن أتصرف بأي بلاهة.

ألكسندر فينش جعلني أخرج شخصيتي الأنثوية النبيلة. ليكن. سأكون سيدة نبيلة، ولنرى كيف سيُعجب بذلك. دفعت ستة بنسات لكل ميل في سبيل الوصول إلى فينش & صن في سيارة أجرة. اخترت، رُغم البرد، عربة مفتوحة تجرها الأحصنة، لأنني أردت إلقاء نظرة أفضل على المبنى من الخارج.

لم أترجل من العربة مباشرة حين توقفت أمام متجر فينش وأنا متدثرة في معطفي الفرو الطويل. استغرقت وقتاً كافياً أتأمل: لست أتأمل هذا القصر الزجاجي المتلألئ خلف زجاجه ثريات النحاس، بل نظرت إلى الأعلى، حيث طوابق سكن العمال. صالات النوم المشتركة، وأنابيب الصرف.

دققت النظر في تلك الطوابق. وقف شرطي النبطجية المتجهم على الجهة الأخرى من الشارع، بلا شك وقف هنا ليراقب الباب الأمامي للمبنى في حالة خروج ألكسندر فينش.

ترجلت من العربة وطلبت من السائق الانصراف، اتجهت نحو متجر التجزئة أرتدي قفازات الحرير ومعطف الفرو، وقبعتي تعلوها ريشات متطاولة.

سألت أول موظف قابلته: «أود الحديث مع السيد ألكسندر فينش». كان فتى شاباً نحيفاً تلثم في كلماته قبل أن يجيبني: «ألكسندر فينش، آه، لست متأكداً إذا كان هنا الآن يا سيدتي».

رفعت حاجبي متصنعة العجب والدهشة. يبدو أن هذا العامل عديم النفع يخاف فينش أكثر مما يخافني؟ تذكرت كيف هرعت الفتاة المسئولة عن طاوله الأحذية مغادرة فور أمرها فينش بذلك. في هذه اللحظة تحديداً حدث أن تساءلت: لم اختار هذا الشاب أن يحادثني في قسم الأحذية، وليس، على سبيل المثال، القفازات؟ ربما لأنه يجب الأحذية. خاصة الأحذية ذات الأربطة الدانتيل. كان يستمتع بإحكام شد الرباط. في الواقع...

شعرت بأغرب قشعريرة تتابني، حيث تسابق العقل والقلب ليفهم ما يدور. شعرت بوهن مفاجئ لدرجة أصابتني بدوار.

«سيدتي!»، صوت العامل القلق وصل إلى مسامعي كما صوت يصدر من جب عميق. تمامًا مثل الأصوات التي تماهت إلى مسامعي، تلك الليلة، وحين حاول أحدهم خنفي.

تذكرت الذعر، التشوش، الضباب، الرجل المربع الذي رفع عني حاجبي. تذكرت أين رأيت وجه ألكسندر فينش من قبل. صرخ العامل المذعور: «ليساعدني أحد! ستفقد وعيها!».

فكرة رائعة، لأن نواياي قد تحولت فجأة. الآن أرجو تجنب الحديث مع ألكسندر فينش، ينبغي ألا يراني. وبينما لم أصطنع الإغماء من قبل، بدا سهلاً كفاية لأفعله. أغلقت عيني وتهاويت على الأرض.

جاء صوت ذكوري بدا سوقيًا يتحدث بالقرب من أذني قائلاً: «أمسك بها!»، قالها وقبض على كوعي. أظن أن العامل الآخر أمسك بذراعي الأخرى، وسمحت لنفسي بالتهاوي بين أيديهما حيث حملاني لوراء باب ما في الجزء الجانبي من المتجر.

قال صوت آخر، أنثوي تلك المرة: «ارقدي هنا على المقعد. من هي؟».

«لا أعرف. أرادت مقابلة السيد ألكسندر».

«حقاً! ينبغي أن يجذرهما أحد».

شعرت بأحدهم يجلسني برفق على مقعد خشبي. وبدأت يد تفك الأزرار العليا من ثوبي. فتحت عيني بتراخ لأرى خادمة في منتصف العمر تساعدني. كان المقعد ذو الظهر المرتفع يقابل الموقد، فمنعني من رؤية بقية الغرفة، لكنني خمنت -بفضل هذا المقعد غير المريح- أنهم نقلوني إلى غرفة طعام العمال.

جاء صوت ذكوري سائلاً: «لم أرادت رؤيته؟».

«لا أعرف. سريعاً فقدت وعيها».

«هل تظن، بالنظر للثياب التي ترتديها، أنها من المحتمل زوجة مدير حوض للسفن؟ أو زوجة مالك مصنع؟ تريد أن تتحدث معه بقليل من العقلانية عن الفوضى التي يحدثها؟».

«دائماً ما قلت أن أصحاب المصانع أشد بأساً، وخاصة عاملات الكبريت».

قالت الخادمة باعتبارها مساوية للعمال: «اللجنة عليهم. رؤوسهم عنيدة لا تصلح للتعامل مع الكيمياء. والآن لا يشتغلون سوى أربع عشرة ساعة في اليوم».

«ليست عاملات الكبريت من يجرضهن السيد الآن.. بل رجال حوض السفن و...».

«... وماذا يفعلون بوقت الفراغ الكبير ذاك؟».

«... والشياطين وخلافه...».

«... يفسدون سمعتهم، إغواء الفتيات الصالحات ليهجرن أعمالهن المنزلية، وتلك السيدة المسكينة تفقد وعيها وتحتاج لرعاية ملائمة... أين النشوق بحق الرب!». «آه! ها هو ذا!».

أحكمت إغلاق عيني. قربت النشوق نحو أنفي، لكنني أجبرت نفسي ألا أصدر رد فعل، لأنني أردت سماع المزيد.

بينما لم تصدر أي ردة فعل على وجهي أو جسدي -أو هكذا أمل- تقافزت أفكارني، وانقبض عقلي كطفل تُقدم له الحلوى: تحريض؟ ألكسندر فينش؟ عمال المرفأ؟ فتيات الكبريت؟ ضربة؟ ألم يذكر جودي شيئاً من قبل عن الكبريت؟

تحدث أحد الرجال: «الشيالون تحلوا بالعقل. لكن عمال المرفأ هم أشبه بقدر يغلي على النار، يوشكون على إطلاق مسيرة مناهضة للمطالبة بحقوق العمال، هكذا يلقبونها». «هي لا تتحرك»، قالتها الخادمة بقلق: «أحضر لي مقصاً لأقص مشدها».

لا، لا، لا ينبغي أن أسمح لها برؤية المشد الخاص بي. حركت عيني بروية. فقالت المرأة العطوف: «انتظر». في الوقت نفسه هدر صوت مألوف من مكان قريب سائلاً: «ماذا يحدث هنا؟ عودوا إلى أماكنكم!». «حاضر سيد فينش».

«علم، سيدي».

«كما ترى، فقدت السيدة الوعي».

هدر الصوت مجدداً: «أي سيدة؟».

تململت متأوهة لأجذب انتباهه نحوي بعيداً عن العمال.

صدر صوته كالنباح تلك المرة وهو يقول: «حسناً أرسلوا في طلب طبيب! أنتم أيها الرجال اذهبوا لعملكم. لا مجال لتسكعكم في حضور امرأة فاقدة للوعي».

أغلق الباب خلف همهمات تتلاشى. فتحت عيني، ابتسمت بوهن للخادمة، وأخبرتها أنني أشعر بتحسن، شكرتها كثيراً، لكن عقلي المتختم بالأفكار بدأ يسترجع ما سمعه.

ربما ألكسندر فينش كان يتسكع بالصدفة في الليلة التي فقدت فيها الوعي في الشارع؟ كان ذلك بعد أيام قليلة من اختفاء الليدي سيسلي؟ ومن المفترض أن الشرطة تضعه تحت رقابة وثيقة؟

أصابني كل فكرة بقشعريرة واضحة، أو هنتني، لكنني أجبرت نفسي على الابتسام والنهوض والمغادرة، لأن أمراً غاية في الأهمية يتطلب انتباهي.

الفصل الرابع عشر

قبل أن تغرب شمس الصباح الضبابي المعتم ليحيل الليل السماء أكثر عتمة، عدت إلى محيط إيبينزر فينش & صن. سأوفر على القارئ اللطيف سرًا كاملاً للمخاطر التي مرت بها أثناء تحقيقي.

المختصر المفيد، أنني بعد أن عدت لشخصية الأنسة ميشل في مكتب الدكتور راجوستين، خادعت السيدة تابر - في مسكني - لأتسلل في ثوب القديسة، مرتدية حجابي السميكة بغاية إخفاء ملامحي كلية، حتى وإن كان ذلك يضعني محط الفضول.

شعرت بنظرات المارة وأنا أسير خارجة من محطة سانت بانكراس، هؤلاء اللندنيون لم يروني من قبل. في تلك المنطقة المزدهرة الحاجة قليلة لقديسة الشوارع.

لا يعني ذلك أنني غامرت هنا لأجل الإحسان. لقد جئت - إذا جاز التعبير - خالية الوفاض، ذلك لم يمنع أن أنامي أحكمت قبضتها المقفزة على خنجر أسفل الحجاب.

لم تكن مغامرتي في المنطقة الأمامية من متجر إيبينزر فينش، بل دنوت من الجزء الخلفي للمبنى. دلفت إلى متاهة الإسطبل حيث عربات الأحصنة والأبقار الحلوب، ثم وقفت في الظلال لأدرس المكان.

مجددًا درت حول نوافذ مبنى فينش، سطح المبنى، ومخارات الأمطار، درستها باهتمام غريب لأن العمارة لم تلهمني من قبل، تلك كانت المرة الأولى التي أنظر فيها لمبنى ما وأنا أفكر في طريقة تسلقه. كما لو كنت أدرس شجرة في الشتاء لأحدد أفضل طريقة لتسلقها والهبوط عنها. تتبععت بنظري أكثر من طريقة ممكنة حتى استقررت على أنسب طريقة.

وبالتالي توقعت كيف سيهبط ألكسندر فينش مسرعًا إلى الممرات المظلمة. تراجعت لأختبئ في الإسطبل مجددًا، صنعت دائرة، وعثرت على تجويف في الجدار يمكنني الاختباء داخله.

قبل أن تزداد عتمة الليل، كما توقعت لأنه يحتاج لرؤية الطريق إلى الأسفل ولا يمكنه أن يكشف طريقة فراره بحمل مشعل، رأيت يتحرك كيرقة وحشية على سطح المبنى، زاحفًا على الأرض بركبتيه ومرفقيه، ومحافظًا على رأسه منخفضًا كي لا يراه أي شرطي يقف في الشارع أو قبالة المبنى.

من حين لآخر كنت أفقد أثره بسبب المداخل الطويلة، لكن سرعان ما يظهر بعدها. تحرك بسهولة ذكية أظهرت عدد مرات هروبه بتلك الطريقة قفز عبر الفجوات بين المباني. بعد أن وصل إلى نهاية السطح، هبط إلى الإفريز، دار حوله، ثم استند إلى أنبوب ماء ليصل إلى برميل خشبي ومنه إلى حصى الشارع.

تمكنت من ملاحظة وجهه الشاحب ونظراته حين أدار رأسه يفحص الطريق. عوضًا عن الملابس المهندمة التي رأيتها فيها من قبل، كان يرتدي قميصًا داكنًا، وسروالًا قصيرًا مثل عمال الصباح، وقبعة من القماش.

تأكد أن أحدًا لا يراه - أو هكذا ظن - ثم تحرك. تركته يسير بمسافة معقولة عني، قبل أن أتدثر بالظلال وأتبعه. هذا الحي في شمال غرب لندن لم يعان من الفقر الذي عانى منه حي الإيست إند - لا وجود لفتيات الليل في الزوايا، سكان هذه المنطقة لديهم خطاياهم الخاصة، لكنها لم تكن خطايا عصرية أو خطايا الأثرياء.

منطقة مبهمة - كوجه ألكسندر فينش - شوارع غير مزدحمة وكذلك ليست مهجورة، عرفت عن المنطقة القليل. جئت إلى هنا مرات تُعد على أصابع اليد الواحدة: مرة لزيارة الدكتور واتسون، ومرة لأزور مسكن أخي شارلوك، ومرتين إلى المتجر. أربع مرات دون إحصاء تلك المغامرة التي أخوضها الآن.

لا عجب أنني ضللت الطريق أكثر من مرة وأنا أتبع ألكسندر فينش. حتى كدت أفقد أثره في مناسبات عدة. من قبيل الصدفة كانت ليلة أقل ضبابًا من المعتاد، لكنها شديدة الظلمة. كنت قد رأيت الأضواء

الكهربائية على طول جسر التايمز، مدهشة بحق، تكاد تحيل الليل إلى نهار. خاصة بالمقارنة بمصايح الشوارع الغازية التي لا تبدد ألسنتها المتذبذبة ظلام الليل.

سار ألكسندر فينش أغلب الوقت -كعادة المتسكعين الآخرين- في ظلال الشارع، كُنت أراه بوضوح فقط حين يعبر أسفل مصباح الشارع. ولأنه لا يجب أن يراني، كُنت أسير في منتصف الطريق في مغامرة أتمنى ألا أكررها أبداً. في الصباح، من الخطر السير في منتصف الطريق، أما ليلاً فالخطورة مضاعفة؛ سائقو العربات لا يمكنهم أن يروني -حتى في وجود مصايحهم المضاءة بالفحم- فصار عليّ مراوغتهم وهي ليست مسألة سهلة بسبب الأرض الرطبة وروث الأحصنة. كدت أسقط أكثر من مرة، وبالفعل في إحدى المرات فقدت توازني واضطرت للتدحرج فوق الحصى لأقي نفسي شر سناكب الأحصنة. كُنت أعاني وأنا أجر ثيابي المبللة.

قادي ألكسندر فينش إلى مستودع في منطقة مجاورة، أعتقد أنه قادي إلى السوق الكبير كوفنت جاردن. أين نحن؟

رأيتَه يدلّف إلى ممرٍ علقت على جداره لافتة:

الأسرة 6 بنسات في الليلة.

جناح النساء 8 بنسات.

شاي، خبز، وماء للاغتسال.

أي إنه يدلّف لنزل من الأكثر فقراً، حيث ترتع الحشرات والذباب، مكان يشبه ذلك الذي خسرت فيه المسكينة الحليلة الجالسة عند عتبات الملجأ ما تبقى من ممتلكاتها.

خمنت -ولم أصدق ما أفكر فيه- من سيقابل ألكسندر فينش في الداخل. لكنه لم يطرق الباب، بل وقف عند زاوية المبنى بعيداً عن الأنظار.

وقفتُ كتمثال أسود على الجهة الأخرى من الشارع، لأنني -وأعترف- لم أعرف ما يتعين عليّ فعله. إذا تبعته داخل تلك الفسحة الضيقة بين المبنيين، سيلاحظني دون شك. وإذا لم ألحق به... عليّ أن ألحق به.

تلفظت بسباب معترضة وأنا أعبّر الشارع. لكن وأنا أقرب من نزل المتشردين، ولدهشتي، رأيت رجلاً يخرج من الظلال حيث وقف ألكسندر فينش. رجل له شعر طويل أسود، ولحية سوداء أشبه بالمجرفة. لم يظهر سوى ما حول عينيه، وظهر شاحباً بشكل صارخ تحت اللحية، لأنه لم يكن يرتدي نظارات، وشعرت بقوة عينيه -على الرغم من أنها لم تنظرا إليّ. رُغم الليل رأيت كم كانت مشرقة بشكل غريب، فضية تقريباً. فغرت فاهاً تحت حجابي واحتجت كثيراً من الانضباط العقلي لأمنع نفسي من الصراخ بصوت عال. الرجل هو ألكسندر فينش. متخفياً. ما كنت لأعرف لولا أنه لم يغير ثيابه. لأنه أولى اهتماماً كبيراً لمهمته، لم يلاحظني. أدار ظهره للشارع ودق باب النزل، فانسلت أنا أختبئ في ظلال نفس المكان حيث كان يقف منذ برهة.

دق الباب بقوة، ونفاد صبر حتى فُتح. ثم وبصوت معسول سأل فينش: «هل ترغب سيدتي في التنزه؟».

لم تجبه، بل خرجت من الباب كحيوان مذعور.. بالتأكيد ما كُنت لأترك حيواناً في هذا المكان.

«دعيني أحمل المشعل». أتحمّل مشعلاً؟ من الواضح. رأيت حركة، ثم أضاء ألكسندر فينش عود ثقاب. وبمجرد أن رأيت الليدي سيسلي، كافحت مجدداً لأمنع نفسي من الصراخ. ما كُنت لأعرفها لو لم يقدني هو إليها. في الواقع أظن أن والدتها ربما لن تتعرف على وجهها الشاحب وشعرها الأشعث القذر الهارب من

خرقة القماش الملفوفة حول رأسها، وكتفيها المنحنيين لا يُدْفئهما سوى وشاح، وتنورتها الممزقة، وقدميها الملفوفتين بالأسمال.

صدقت ما تراه عيني لأنني رسمت مرات كثيرة هذه الملامح وبصورة مختلفة. الليدي سيسلي، الشحاذة تحمل سلة ضخمة. أثار هو المشعل، وأعاده لها. قالت شيئاً، لم أميزه.

أجابها بصوت مرتفع: «العمل أولاً، الطعام فيما بعد».

مجدداً تمتمت بأعين متوسلة. لكنه لم يجبهها تلك المرة بل زفر في حنق، ثم سدد لها سبابته محذراً. تشنج وجهه، وتركزت نظراته عليها. حرك يديه دون أن يمسه من أعلى رأسها مروراً بوجهها وكتفيها. ما كنت لأصدق ذلك لو لم أره، لكن ما رأيت كان أنه استحوذ عليها تماماً دون أن يلمسها. تلاشت من عينيها الحياة، ووقفت كما دمية من البورسلين، داخل جرس زجاجي.

كرر سيدها: «العمل أولاً ثم الطعام».

دون أن ينظر إليها مجدداً، سار الوغد ذو الشعر الطويل والذقن السوداء في اتجاه محطة بادينجتون، وعرجت خلفه تحمل المشعل والسلة، كما وشاح ملفوف حول مرفقه. لم يكن أطول من معظم الشباب، لكن رأسه المنحني بالكاد وصل إلى كتفه.

حافظت على مسافة جيدة بيني وبينهما، لكن سمحت لنفسي بالسير على الرصيف تلك المرة. تبعتهما بذهن تضارب فيه الرعب والفضول والتكهنات، لأنني لم أتمكن بعد من هضم ما رأيته للتو. وفي الآن ذاته تلح عليّ نفسي أن أفعل شيئاً ما، أن أساعدها بطريقة ما، أتدخل.. لكن كيف؟ وضد ماذا؟

لم أستطع بعد تحديد العواقب. فقط شاهدت ما يحدث. في زاوية في مواجهة نزل عمومي، وقف عدد من الرجال حادي المظهر أسفل مصباح. رأيت ألكسندر فينش والليدي سيسلي يتبعه كطفل، يتوقفان لتحيتهم. بعد المصافحة، اختلقوا صندوقاً خشبياً مرتجلاً، وصعد ألكسندر فينش -أو الوغد ذو اللحية السوداء، لأنني بالكاد أصدق أنه ألكسندر- على المنصة المرتجلة، وبدأ الحديث.

بقيت في الظلال، ووقفت بعيداً جداً لدرجة لم تسمح لي أن أسمع ما يُقال، ولكنني التقطت بعض كلمات مثل «قهر الأسمالية»، «إمبراطورية تُبنى على عاتق العمال المسخرين»، «حقوق العمال»، وغيرها من الأقوال. بلا شك أن أنظر إلى فينش يثير الحفيظة بين الطبقة العاملة، كما يقول كتبة الأعمدة الإخبارية، وخاصة الشيلين وعمال المرفأ كما ذكر العمال في المتجر. لم تفاجئني معرفتهم بأنشطة سيدهم الليلية، الخدم دوماً يعرفون كل شيء، إلا أنهم لن يفصحوا عن شيء سوى لأحدهم الآخر.

أصدر ألكسندر من فوق منصته الأوامر لليدي سيسلي، وها هي الآن تقف على مقربة منه، أسفل مصباح آخر، تمنح كل شخص يقف لينصت شيئاً صغيراً أبيض من سلتها. قال جودي أنه رأها تحمل «الصحف». منشورات. لنقابة عمالية، أو شيء من هذا القبيل.

التف عدد معقول من الرجال، وبعض النساء، ليستمعوا إلى ألكسندر فينش. ربما لن يلاحظني أحد إذا اقتربت أكثر، مجرد عابرة طريق تصادف أنها راهبة، في الشارع!

بعد التفكير لبرهة، قررت المخاطرة. سرت نحو الليدي سيسلي محاولة ألا تظهر عليّ العجلة أو التردد.

«... أفيون الشعوب!».

هذا ما قاله فينش من فوق.. أجل أظن أنه يقف على صندوق صابون: «وكما لُقن الأطفال الإنجليز الأرستقراطيون بكل وضوح.. كل المخلوقات كبيرة وصغيرة، السيد الرب خلقهم جميعاً. الثري في قلعته، والفقير على بوابته، خلقهم الرب فقيراً وغنياً، ومنحهم مكانتهم!»، ويقال إن الرب الإله الصالح قضى بأن

يعيش ثلاثة أرباع السكان ويعملون في فقر مدقع، في حين أن قلة مفضلة ستقضي أيامها -بمساعدة الخدم- يغيرون ملابسهم خمس مرات يوميًا!».

لا يسع المرء ألا يُعجب بالحماس والصلابة اللذين تحدث بهما. هو عبقرى. انفتحت مع الكثير مما يقول. من الصعب تصديق الأفعال الحمقاء التي اتهمته بها. مع ذلك يمكن أن يقول المرء الصدق وهو شرير. هناك وقفت الليدى سيسلي.

استدارت بعض الرؤوس نحوي عندما وصلت إلى حافة الحشد، لكن أغلب الواقفين كانوا يريدون الاستماع فحسب، سواء أصابتهم الصدمة أو الإعجاب.

أما عن فينش، الذي كان مخلصًا لخطيته، فقد كنت أمل ألا يلاحظ قديسة الخير المحجبة. وحتى إذا حاول، تخيلت أنه لا يستطيع في تلك اللحظة تكريس الكثير من التفكير لتذكر لقائنا السابق، في ظل ما كان -بالنسبة لي- من ظروف سيئة.

أما بالنسبة للفتاة التي تحمل السلة، فقد وقفت في كآبة تشبه السخام حولنا، ويحفها الصمت. حين مررت جوارها قدمت لي بفتور ورقة من المنشورات.

كان من الضروري أن تتحدث الأخت البكاء قديسة الشوارع أن تتكلم الليلة، إذ لن تتكلم بعدها أبدًا. همست لها وأنا على مقربة: «ليدى سيسلي».

لم تنظر نحوي.

همست مجددًا لكن مقربة وجهي أكثر من أذنها: «ليدى سيسلي!».

أنا أكيدة أنها سمعتني. لكنها لم تجبني، لم يرمش لها جفن، أو نظرة، لم ترتجف.

قال ألكسندر المتحمس: «اجتمعنا مرتين بسلام كما يحق لنا، سرنا مرتين سلميين إلى ميدان ترافالجار حاملين الأعلام والرايات، لندفع غرب لندن لتذكرنا، وقد انهالت علينا الشرطة بالضرب لتُعيدنا إلى أحيائنا. وبعد أن انسحبنا مدممين مهزومين، هذا ما قاله عضو من البرلمان: «من عدم الذوق أن يستعرض الناس جوعهم الوقح في المناطق الثرية والتجارية من المدينة. كان ينبغي عليهم أن يتضوروا جوعًا في مناطقهم».

تدفق الحشد إلى الشارع، حتى وصلوا إلى الرصيف المقابل. لكن بين هذا الحشد الضخم لم يُسمع سوى صوت الخطيب ذي الشعر الأسود. مرت نظرة ألكسندر فينش الفضية القوية مثل المغناطيس على الحشد.

حملوا كما لو كانوا...

سمحت لنفسى أن أفكر في ذلك.

مسحورين.

مثل الليدى سيسلي.

الفصل الخامس عشر

التنويم المغناطيسي. ما كنت لأصدق الأمر لو لم أراه.
لكنني رأيته يفعل ذلك مع الليدي سيسلي. مهها قصرت مدة ما رأيته، فأنا رأيته يحرك أصابعه حولها بطريقة مغناطيسية، ويحقد فيها، تمامًا كما وصفت السيدة بايلي والآخرين الأمر لي.
والآن تقف الليدي سيسلي أمامي في زاوية الشارع: لا حول لها، ترتدي أسفلاً رثة، تتعامل بألية، تنسى جوعها لأجل توزيع منشورات اللا سلطويين.
مجرد النظر إليها جعلني أريد أن أصرخ بإحباط. كنت أرغب بشدة في مساعدتها، وتحريرها وإنقاذها والقيام بشيء ما.. لكن ما هو؟
الذهاب لإحضار شرطي نبطجية؟ لكنه ليس على دراية باختفاء الليدي سيسلي وبالتالي لا يملك سبباً للتحفظ عليها.

أهرع لأخبر الليدي ثيودورا بكل ما أعرفه، ثم أدها تمرر الخبر للسلطات؟ لكن هذا سيستغرق ساعات طوالاً، ربما يوماً كاملاً، وفي خلال ذلك الانتظار ماذا لو حدث مكروه لليدي سيسلي؟
صرخ خاطفها في الحشد: «دعوهم يطلقون شرطتهم الإمبريالية علينا. دعوهم يمنحونا يوم أحد دمويًا آخر! لأن في المرة القادمة سنلون أعلامنا بألوان دماننا! المرة القادمة سنرفع علم الثورة الأحمر!».
ألقي الرجال قبعاتهم الخشنة في الهواء، وهم يصرخون بعنف، ويهتفون لمسيحهم المكتشف حديثاً.
لكنني أدرك أنه تحت الشعر المستعار الأسود الجامح واللحية الزائفة لم يكن هناك بطل من الطبقة العاملة.
كان خدعة. هو ابن صاحب متجر ثري.
وكان يتمجد بالقوة التي يكتسبها من الحشد.
على ما يبدو أنه يجب ممارسة السلطة.

عندما شاهدت الفتاة المقهورة، الليدي سيسلي، عرفت أنني لا أستطيع أن أدير ظهري لها ولو للحظة، خشية أن تختفي مجدداً. لزاماً عليّ أن أخرجها من هنا. الآن.
لكن كيف؟ كيف أفيقها من التنويم المغناطيسي؟ وقد سمعت أن ذلك يتم من خلال ممارسات تنويم مغناطيسي عكسي، بدا من غير المرجح تحقيق ذلك. أقبض عليها وأحملها هاربة؟ لكن بعد ذلك ستتم ملاحظتي كخاطفة، لأنها ستصرخ وتكافح لتتخلص من قبضتي.
كنت أعرف أنها ستفعل ذلك، فبينما كانت تبدو وديعة مروضة مثل حمامة - تقف هناك بعينون تلبدها الغيوم، وتوزع الأوراق، كنت أعرف تمام المعرفة أن هناك جانباً آخر منها، وليس السيدة سيسلي التي ترسم الألوان الزاهية، بل السيدة العسراء التي ترسم رسومات جريئة وقائمة..
انتظر لحظة.

ليدي سيسلي - أو الفتاة الفقيرة التي أعرف أنها الليدي سيسلي - توزع الأوراق يمينها.
حين ومضت تلك الفكرة في ذهني، أصابتنى بتيار كهربائي من الافتراضات والآمال، وأنا أكيدة أنها انعكست على مقلتي لتبدو كمصايح مضيئة.

تمتد لنفسي أسفل الحجاب: «يا لحسن الحظ، والأربطة!».
لكم أرجو لو كان بإمكانني القيام بذلك. أن أتواصل مع السيدة العسراء، والعمل على فرضية أن الليدي سيسلي التي تستخدم يدها اليمنى السلسلة سهلة الانقياد هي فقط من وقعت تحت سلطة الشرير.

إذا كانت السيدة العسراء السرية المتمردة كامنة دون قيود داخل هذا المخلوق الوديع أمامي، فعليّ التواصل معها، وبسرعة، وبطريقة من شأنها أن تجعلها تتواصل معي كما لو كانت عن طريق أسلاك التلغراف، أي على الفور.

عن طريق الغريزة أكثر من التفكير الواعي كنت أعرف كيف يمكن القيام بذلك. كما ترون رسوماتها على الفحم أثرت فيّ بشكل غريب. لمست بعض أعماق النقاط داخلي. تقريبًا كما لو أنها وإياي يمكن أن نكون توأم روح. ربما، فقط ربما، قد تتعرف عليّ بالمثل.

لذا، مددت يدي إلى الجيب حيث القلم الرصاص والورق - كنت دائمًا أحملهم معي - فتحت الكتيب السياسي، وأخفيت الورقة خلفه، ووقفت وظهري يواجه ضوء المصباح حتى لا يراني أحد سوى الفتاة الهزيلة، ورسمت.

مجددًا الغريزة وليس الوعي ما أملي عليّ ما أرسم، وأفضل طريقة لتصوير الحرية كما اختبرتها لليدي سيسلي. رسمت بسرعة، وأفضل من أي وقت مضى في حياتي.

لقد رسمت صورة مشابهة لليدي سيسلي، ترتدي أحدث الصيحات «التركية» الأنيقة، تقود دراجتها الهوائية - تطوي الأرض بقوتها الخاصة، كما أحببت أنا أيضًا أن أفعل. السيدة سيسلي، قوية وجميلة ومبتسمة، والرياح تداعب شعرها الطويل ويطير على شرائط قبعتها.

وبينما كان قلبي يتحرك على الورق أمامها، استطعت أن أرى بطرف عيني الفتاة الفقيرة تزدهر دون حراك، تتناسى المهمة الموكلة إليها بتوزيع المنشورات السياسية. رأيتها تتصلب، ونظراتها مثبتة على الرسم. نقلت القلم الرصاص إلى يسراي. بدأت بشكل عجيب كما تكتب من اليمين إلى اليسار: «مَن...». لكنني تماديت. أسقطت السلة، وقبل أن أتمكن من استكمال السؤال مدت يسراها والتقطت مني القلم والورقة.

لم تعد كئيبة، بل وقفت أمامي كشعلة لهب صغيرة تسألني: «كيف تجرؤين؟ ما الذي تُقدمين على فعله؟ مَن أنت؟».

لحسن الحظ لم يعبا بنا أحد من المتجمهرين، لأن الجمع كان يهدر مؤيدًا ألكسندر فينش وهو يزار قائلًا: «دعوهم يطلقون خيولهم وفرسانهم علينا، دعوهم يذبحوننا كما فعلوا في بيترولو، مع ذلك سنقاوم!».

بدت لليدي سيسلي غير مرحبة لي: «مَن أنت؟». وفي استنفار اللحظة - يا إلهي كم تأثرت بذكر الفرسان - أقصد، في وقت الأزمة، وأنا لا أعرف كيف يمكنني تهدئتها أو الإجابة عليها، فعلت شيئًا ما كان ينبغي أن تفعله القديسة قط. ولم تفعله من قبل. رفعت حجاي.

سمحت لها أن ترى وجهي. وجهي الطويل الشاحب «الشيثروني». حدقت بي. أخذت نفسًا وزفرته كما تطفئ لهب الشمعة. قالت برفق: «ماذا؟! أنت مجرد فتاة». استمرت تتفحصني في حيرة وفضول.

وأضافت: «أنت ترسمين رسمًا رائعًا». ذكرت رسوماتها الفحمية التي لم تسمح لأحد برؤيتها، وأظن أن وجهي عبر عن شيء، أو بدا عليه تعبير جعلها تبتسم.

قالت في نبرة خفيفة كما تتحدث لصديقة: «أنت لستِ راهبة، ماذا تفعلين بتلك العادة السخيفة؟».

أجبتها بأكثر لكناتي أرسقراطية لتعرف أننا ننتمي للطبقة ذاتها، وبيننا الكثير من التشابهات الأخرى: «ليدي سيسلي، يمكن للمرء أن يسأل...».

كنت أقصد أن أناديها وهي ابنة بارون ترتدي الخرق. ولكن عندما لفظت اسمها، تجمدت، وأطلقت صرياً، يكاد يكون صراخاً، كما لو أنها لم تكن تعرف أنني أعرفها. كما لو أنها لم تسمعني أناديها بهذا الاسم من قبل. كما لو كانت صماء، لكن يمكنها للتو أن تسمعني.

لحسن الحظ، تبدد رد فعلها دون أن يلاحظه أحد وسط هتافات الحشد. جربت مجدداً: «ليدي سيسلي، لا داعي للقلق. كل ما أرجوه صداقتك. أريد اصطحابك لمكان دافئ وآمن، وبتناول وجبة، وأخلصك من تلك الخرق».

نظرت إلى نفسها، ثم عادت تنظر لي بنظرة جامحة مذعورة، ثم بدأت تنظر حولها مشدوهة وفي شبه رعب، كما لو كانت بالكاد تعرف أين هي. أضفت برفق: «الصحبة هنا غير سارة، هل نذهب؟». أمسكت بيدها اليسرى - كانت يدها العارية الزرقاء ترتعد من البرد - جذبتها عدة خطوات بعيداً عن تجمع ألكسندر فينش ومريديه.

«للرجل العامل الحق في تكوين النقابات مقابل أجر عادل للساعة» قالها الخطيب في زاوية الشارع وأضاف: «ويوم عمل عادل أيضاً!».

توقفت الليدي سيسلي وقالت: «لا. لا. أنا.. لا يمكنني». حافظت على نبرتي هادئة لأنني لست في حاجة لجذب انتباه فينش نحوها. ونحوي: «لم لا؟». «هو.. ولائي.. القضية.. اسم كامرون شو يجب أن يكتب في تاريخ إنجلترا. سيكون رجلاً ذا شأن عظيم يوماً ما».

«من؟». «كامرون شو!»، بنظرة من التفاني الحماسي أشارت إلى الوغد ذي اللحية على الصندوق الخشبي وسألني: «أتقصد أنك لم تسمعي به من قبل؟».

بهدهوء وصدق أجبتها: «أنا متحمسة لسماع كل شيء عنه. كيف التقيت به؟». «أنا.. كان الأمر أكثر غرابة...»، تقطبت جبهتها، وقفت مرة أخرى في حيرة، عيناها تدمعان بينما كانت ترتجف من البرد مثل طفل ضائع.

قلت لها وأنا أمسك يدها وأقودها بعيداً: «تعالى».

عند التقاطع الأول انحرفت لشارع مختلف، بعيداً عن أنظار ألكسندر فينش. ثم، وأنا أتنفس الصعداء، أبطأت من خطاي لتتمكن الليدي سيسلي من مجازاة سيري بارتياح - لأنها تعثرت بقدميها المفلوختين بالخرق على الأرض المتجمدة - وكذلك لأتمكن من استيعاب أين نحن، وإلى أين سنذهب. لا شيء يبدو مألوفاً في تلك الشوارع الفارغة. لم أر أو أسمع أي شخص آخر في مكان قريب؛ بدا هذا الحي مهجوراً في الغالب خلال ليلة شتوية، على الرغم من أن أي شخص بداية من نشال وصولاً إلى جاك السفاح نفسه يمكن أن يتربص في الظلال الضبابية والدخانية بين مصابيح الشوارع.

بدأت أسنان الليدي سيسلي تصطك من فرط البرودة والخوف. توقفت للحظة، ووجدت في جيوبي بعض الحلوى التي تجدد القوة ودوماً أحملها معي، أعطيتها لها. خلعت قفازاتي المبطنة بالفراء وأدخلتها في يديها المتجمدتين. فتحت عباءتي ودعوتها إلى مشاركة دفئها، ولففتها حولنا، وذراعي اليسرى حول كتفها كما لو كانت أختاً صغيرة.

سألته على الفور بلطف: «إذا أخبريني، كيف قابلتِ.. كامرون شو؟».

«بالكاد يمكنني الحديث عن هذا. ستظنينني مجنونة».

«أعدك أنني لن أفكر في شيء من هذا القبيل. كيف حدث الأمر؟».

«في حلم. جاء إليّ.. جاء إلى عقلي في نومي، مثل ملاك له شعر أسود، يستدعيني لأكون خادمة لحملته الصليبية».

تمت مشجعة إياها أن تستمر على الرغم من أنني احتجت لأقوى درجات ضبط النفس لكي لا يبدو عليّ التذمر. تشكلت الصورة في ذهني لشيرير مقنع يقف أمام سريرها، يحدق في عينيها بعينه الغريبتين، يمرر يديه فوق براءتها النائمة ليخترقها بفعله المغناطيسي، ويحكم سيطرته عليها قبل أن تستفيق بالكامل.

قالت الليدي المرتجفة: «تم اختياري. مثل القديسة جان دارك».

«نعم، أفهمك».

«أنت تفهمين بالفعل، أليس كذلك؟».

جيد، تمكنت من عدم الإفصاح عن مشاعري المستفزة في نبرتي. استمرت الليدي سيسلي في الحديث بسرعة: «ثم استيقظت في منتصف الليل، ولم يكن هناك أحد في غرفتي، لكن النداء كان قوياً لدرجة دفعني للنهوض من سريري. عرفت بالضبط ما عليّ فعله. كانت هناك ملابس متواضعة في انتظارني، تنورة وسترة ووشاح مثل ما قد ترتديه عاملة الغسيل. ارتديتها فوق ثوب نومي. كانت النافذة مفتوحة. تسلفت خارجاً. وهبطت إلى أسفل...».

أربكت الذكرى المخيفة كلماتها وقدميها. وقفنا عند مفترق طرق مظلم، ولم أكن أعرف شيئاً في أي اتجاه، ولا حتى أن أحدد أين الشرق من الغرب أو الشمال من الجنوب.

اخترت شارعاً جانبياً بشكل عشوائي، وانطلقت مرة أخرى، مصطحبة إياها، وقلت: «هبطت إلى أسفل السلم؟».

«كيف تعرفين؟»، دون أن تنتظر إجابتي قالت: «بلى، السلم، وكان مرتفعاً للغاية، ويتحرك، شعرت بالرعب، لكنني كان عليّ القيام بذلك. هو.. أقصد كامرون شو، كان ينتظرنني في نهاية السلم».

«هل قابلته من قبل؟».

«لا، أبداً! عدا في منامي. هذا ما يجعل كل شيء غريباً كما ترين».

لذلك لم تتعرف على ألكسندر فينش وهو يضع هذا الشعر المستعار واللحية المزيفة. ألكسندر فينش. ابن صاحب المتجر. تذكرت كيف رأيته أول مرة لا ملامح معينة تميزه. كيف وقف متصلباً، كما لو كان بلا روح، حين صرخ والده فينش يناديه.

لكن الآن بدأت أفهم: كل هذا الغضب لم يضع هباءً. لقد استغله. وقد جعله شخصاً يجب أن أكره الثقة فيه.

تصلبت الليدي سيسلي تحت عباءتي، فجأة تحولت إلى دمية قد سحب شخص ما خيوطها. قالت بنبرة غريبة: «يجب أن أعود».

«إلى أين؟ المنزل؟».

«لست أملك منزلاً».

«بالطبع لديك منزل. قصر البارون».

«رفقة أبي الذي يتلمل مل دومًا بسبب عبء الإمبراطورية وتقدم الإنسان، وفي الوقت نفسه ينوي تزويجي لأي شخص يحمل لقب نبيل ويرتدي السراويل؟ لا. لا يمكنني العودة إلى هناك».

أحكمت ذراعي حول كتف الليدي سيسلي، متأثرة بصدقها وبحوارها. لقد مر عليّ عام كامل أفنقر لحديث حميم مع شخص آخر، وهذه الفتاة - التي رغم كل شيء تشبهني كثيرًا - مجرد الحديث معها جعلني أختبر دفء مشاعرها العظيم.

قُلت: «هناك احتمالات أخرى، ربما».

«مثل الحياة التي اخترتها؟ كيف فعلت ذلك؟ من أنت؟ لم تخبريني بعد عن اسمك».

كم وددت ذلك. أتوق لإخبارها كل شيء عن شخصي. وعن نفسي الوحيدة الغربية العنيدة. ربما.. ربما ليست مضطرة للعودة إلى حياتها ذات الرسومات الباستيل الزاهية، ويمناها المهذبة تحمل قدح الشاي. ربما يمكنها بدلًا من ذلك أن تعيش - كأخت - معي.

الفصل السادس عشر

شعرت بشفتيَّ ترتجفان وهما تتباعدان لأنطق. شعرت بأنفاسي تتسارع. سمعت نفسي أقول: «إينولا. اسمي إينولا هولمز».

وكنت سأخبرها أكثر. كنت سأخبرها بكل شيء عني، لكن في تلك اللحظة فقط، تدخل صوت من الظلام. صوت سيدها يقول: «سيسلي! تعالي إلى هنا!»، كان الصوت قريباً. ارتبكت، فشلت أن أبعدها عنه.

وأنا متأكدة من أنك ستعتقد أنني أبالغ في الكلام، أيها القارئ اللطيف، عندما أقول إنني شعرت بحضور غضبه مثل قوة الطبيعة في الليل، لكنني أخبرك بالحقيقة البسيطة: غضبه اهتزت له الظلال الهادئة.

شعرت بالليدي سيسلي تهتز مثل الطيبي الخائف، وبدأت ترتجف ثم همست في رعب: «يجب أن أعود». «لا!»، تمسكت بها بينما أخذت أفحص الحي بحثاً عن مهرّب أو ملجأ، وأخيراً تعرفت على شارع قريب. كنت قد زرتة. الآن أعرف أين أنا وطريقة الفرار.. لكنها أفلتت قبضتي. «ليدي سيسلي، لا!».

لم تُدر رأسها أبداً لتودعني. في الواقع، بدا أنها لا تسمعي. كما أنها لم تهرب مني. كما شخص يسير وهو نائم ابتعدت عني - أو بالأحرى اقتربت منه. كان أكثر ظلاماً في عتمة الشارع. بينما وقفت أنا في الظلال. هرعتُ نحوه في أسهل متسخة ربا كانت يوماً ما ثياباً بيضاء نظيفة.

رأها في ضوء المصباح فهتفت: «سيسلي!». على الرغم من أنني لم أسمع أي رنة سعادة في هذا الهتاف.

بل سمعت نبرة مخيفة تضيف: «كيف تجرؤين على ترك عملي. تعالي إلى هنا.»

يبدو أنه لم يسمعي أو يراني. ليس بعد. أسدلت حجابي لأخفي وجهي.

تحرك نحو الليدي سيسلي. سارت لمقابلته. في وسط الشارع المظلم المهجور واجهته، وانحنى رأسها كما لو كانت طفلة شقية. سمعته يتحدث إليها بنبرات ساخرة، لكنها مهددة.

لم ألتقط الكلمات، لأن انتباهي كان مشغولاً تماماً بأي أصوات قد أصدرها وتفصحي.

رأيته يخفض رأسه الملتحي ليقابل وجه الليدي سيسلي. رأيتها تتدلل. اتخذت طريقاً ملتويّاً عبر الظلال لأنسلل أقرب إليهما، دون أن يرياني.

«أنصتي إليّ. أنصتي أيتها الحثالة»، سمعته يحدثها وأنا أخطو على أطراف أصابعي، كان غضبه مخيفاً بما فيه الكفاية، ولكن كان هناك أكثر من ذلك؛ كان الساحر يأمرها، تنويمه المغناطيسي يمارسه بنظرته الأشبه بالكوبرا.

«عليك طاعتي وإلا ستعاقبين. جراء عصيانك الليلة ستمنعين من وجبتك. ماذا أخبرتك للتو؟ تكلمي».

مثل صدى له أو شبح لنفسها بدأت همس: «جراء عصياني...».

هنا قررت أن أتدخل. صرخت كما يصرخ ابن عرس شاقا بصرخته صمت الليل. وجهت كلتا يدي إلى وجه الساحر وأمسكت بشعره. تشابك، صراخ، جذب بأقصى ما أستطيع. بيد واحدة انتزعت شعره المستعار وبالأخرى نزعت لحيته الزائفة.

صرخت الليدي سيسلي، كادت تفقد وعيها. لكن بلهفة كبيرة احتشدت داخلها قالت: «ألكسندر فينش؟».

ها هو يقف بشعره الحقيقي، حتى إن لم يرتد نظاراته، يُفكر فيما عليه أن يقول أو يفعل.

صرخت الليدي غاضبة: «ألكسندر فينش!»، جرى الأمر كما توقعت. كانت لتتحمل المعاملة القاسية من شخص أعجبت به، لكنها لم تطق الخداع. «أيها المخادع! المحتال!». تغير كل شيء في تلك اللحظة وأنا أقف جانباً ألقى بالشعر المستعار من يدي إلى الشارع.

«كيف تجرؤ على معاملتي كحمقاء!».
قال بنبرة سلطوية محاولاً استعادة سيطرته عليها: «صه!».
«صه؟ لن أفعل أيتها الحشرة الحقيمة! أيتها اليرقة!».

كان بالفعل يبدو أشبه باليرقة برأسه الأصلع وعينيه الدائرتين. أضافت في حقن: «أيها الصعلوك، يمكنك أن تمنى صمتي، لكنني لن أهدأ حتى تسمع كل أقسام الشرطة في إنجلترا عن عارك». التفتت مبتعدة وبدخلها حقد يكفي لحرقة.

لكن هذا الرجل لا ينجل. جذبها قائلاً: «لا تديري ظهرك لي. أنا أتحدث إليك».
أفلتت قبضته وحثت في سيرها. لم تركض. بأقدام متجمدة ملفوفة بالخرق سارت بوتيرة أرستقراطية. ربما كان لها شخصية مزدوجة، لكن ليس الآن. لا يمكن لأحد أن يخطئ مظهرها الفقير، لكنها أبحرت كما سفينة في نهر التايمز، تسير كسيدة نبيلة.
«أيتها اللعينة، لا تجرؤي على تحديّ!».

لم تجبه واستمرت في السير.
«أيتها العاهرة أنا أحذرك».

رغم أن صوت ألكسندر فينش لم يرتفع لكن شيئاً في نبرته أصابني ببرودة أشد من برودة الليل، وأصابني بقشعريرة.

شخصية مزدوجة؟

لا، ليست الليدي سيسلي هي المصابة بمتلازمة الدكتور جيكل والسيد هايد.
رأيتها تسرع من وتيرة سيرها قليلاً.

صرخ فينش وهو يخرج شيئاً من جيبه: «لن تهجريني أيتها اللعينة!»، شيئاً طويلاً. حلقة بيضاء طويلة. يتلوى مثل ثعبان أبيض في الليل. خادع تماماً للبصر حتى أن المنظر للوهلة الأولى خدع ذكائي.
صرخت وأنا أقفز لإيقافه: «لا!».

لقد ضربني بكل بساطة بظهر قبضته، وأرسلني إلى الجهة الأخرى من الطريق، وبعد ذلك لم يعرني أي اهتمام. ربما تذكر هربي مذعورة بعد لقائنا الليلي الآخر، وتوقع نفس الشيء. ربما كان يعتقد أنه لا يمكن لأي أنثى أن تفعل ما هو أكثر من الصراخ أو الإغماء أو الهروب. ربما في غضبه القاتل لم يفكر على الإطلاق.
ضربته أسقطتني إلى الرصيف المرصوف بالحصى حيث استلقيت أحاول التنفس. مشلولة للحظة. غير قادرة على الحركة.

لكنني استطعت أن أرى.

رأيت ذلك الشرير المجنون ينقض كالوحش على فريسته. يحكم الآلة الحادة التي قبضت على عنقي ذات ليلة حول رقبتها.

احتقن وجه الليدي سيسلي. زاغت عيناها. تحرك بيدها نحو عنقها تحاول جذب هذا الشيء غير المرئي الذي يحكم قبضته عليها ليسرق حياتها، تماماً كما فعلت في تلك الليلة المروعة حين...

وفي تلك اللحظة المذهلة، وأنا أهت لأتنفس، وأتذكر ما حدث معي، فهمت ما معنى «رؤية الأحمر». خُصِّب الليل في نظري، حفزني الغضب فقفزت على قدمي. لا أعرف كيف وصل خنجري إلى يدي، لكنني أحكمت قبضتي عليه. رفعت السلاح، واندفعت نحو فينش.

قاس. ليس لديه حق في استعبادها سوى رغبته في التحكم. ولم يكن لديه أي سبب ليهاجمني. ليخنقني حتى الموت بلا سبب. قبل -ربما من قبيل الصدفة- أن يتوقف ليستمتع بالنظر إلى وجهي المحتقن. صرخت: «أيها اللعين! أيها الفأر القذر».

أربكتني تربيتي المهذبة، فلم أستطع التفكير في أي سبة ملائمة لهذا الشرير وأنا أسدد السكين داخله. تحديداً إلى كتفه. ليس إلى قلبه. لم أهتم بقتل هذا الوحش.

هدر متألماً وأفلت أداة قتله الوضيعة، وسقطت الليدي سيسلي على الحصى.

أعتقد أن ألكسندر التفت إلى وجهي، ورفع يده لدرء ضرباتي، لكنني في الواقع بالكاد أدرك ما جرى. أتذكر فقط أنني طعنته مرة أخرى، في ذراعه أو كتفه، وطعنته مرة ثالثة في غضب أعمى بصري. لا أعرف كم مرة ضربته، أو كم من المرات، أو ما هي الكلمات التي صرخت بها، أو ما إذا كان قد حاول انتزاع السكين مني. ثم أدركت أن كل طعناتي سُددت إلى الهواء.

ارتجفت لسماح صوت خطواته الراكضة، تمكنت من رؤيته يركض مدمماً. تساقطت قطرات الدماء لتلطن الحصى.

وعلى الأرض الباردة رقدت الليدي سيسلي في أسأهاها، شاحبة وساكنة.

لنتقذنا السماء! يوم هوجمت كُنت أرثدي فستاناً ذا ياقة عالية سميقة أنقذتني - لكنها لا ترتدي واحداً. رقدت كما الموتى. همست: «أرجوك، لا...»، بدأت أهز جسدها في غضب أفسح المجال بعد ذلك للخوف، اهتزت يدي، دون وعي، وأنا أعيد الخنجر إلى مخبئه داخل المشد. تضرعت وأنا أركع إلى جوار الليدي سيسلي: «أرجوك!»، في هذه اللحظة أدركت مقدار ما توغلته الآلة داخل عنقها. ارتجفت يداي بشدة لدرجة أنني بالكاد استطعت نزع هذا الشيء القبيح، وأخذت لحظات كثيفة أفكه.

مددت يدي محمومة أتحمس نبضها، وأتأكد من تنفسها. اعتقدت أنني شعرت برفرة شيء ما -ربما- لكنني أرتعش بالفعل فلا يمكنني أن أجزم بما شعرت.

النجدة. أحتاج لمساعدة الليدي.

وكانت صدفة غريبة، أو ربها العناية الإلهية، عرفت أين أعثر على المساعدة.

حملت السيدة بين ذراعي، ترنحت على قدمي، وتحركت نحو مكتب متواضع وسكن قريب. مغلق الآن، بالطبع، لكنني تعثرت على درجات الحجر الأبيض صعوداً إلى الباب، واتكأت هناك، وحررت يداً واحدة، وطرقت الباب بالمقبض النحاسي بكل ما تبقى لي من قوة.

واصلت طرقي المحموم حتى فتح الباب بالفعل. ما زلت أحمل السيدة المنكوبة، ترنحت، كدت أسقط في الردهة الأمامية.

لمحت الخادمة المدهوشة التي سمحت لي بالولوج، لأن نظرتي المذعورة تركزت على الرجل المصعوق الذي خرج للتو من مكتبته وفي يده مشروب ما بعد العشاء: الدكتور واتسون.

حاولت أن أقول له شيئاً، لكن كلماتي اختنقت، لأنه إلى جانب الطبيب سار رفيقه في العشاء وصديقه -أخي- شارلوك هولمز.

الفصل السابع عشر

لحسن الحظ لم يكن من المرجح أن يبدو عليّ الذعر - أكثر مما بي من ذعر - لأن وجهي كان لا يزال مُغطى بالحجاب الأسود.

ولحسن الحظ أيضاً أن انتباه شارلوك هولمز، كما انتباه الدكتور واتسون، انصب على جسد الليدي التي ربما فارقتها الحياة.

«إلهي الرحيم!»، قالها الدكتور واتسون وبخطى متسارعة نحوي، حمل الليدي سيسلي كما لو يحمل طفلة. هرول حاملاً إياها إلى المكتبة الدافئة المضاءة جيداً.

تبعه أخي سائلاً: «هل تتنفس؟».

«بالكاد».

هي على قيد الحياة. حين سمعت ذلك شعرت برأسي يدور، بل بخفة غريبة كما لو كنت أطفو، فقد انزاح عن كاهلي هذا العبء الثقيل.

أرعى الدكتور واتسون جسد الليدي على مقعد وثير جلدي، وبأصابعه المدربة ضغط على راسها: «نبضها ضعيف. اجلب لي البراندي يا هولمز!».

كان أخي يخطو بالفعل نحو الزجاجة مولياً ظهره لي. وقفت الخادمة على مسافة ما مني، متشبثة بدرابزين الدرج ويبدو أنها على وشك الإغماء. في تلك اللحظة كان بإمكانني ببساطة أن ألتفت، وأخرج من الباب، وأنزلت إلى الظلام.

عرفت أن عليّ فعل ذلك. لم يعد هناك سبب يستدعي مكوثي هنا. الليدي سيسلي ستحظى بعناية جيدة. وكانت هناك كل الأسباب التي تدفعني إلى المغادرة. قد يتحول انتباه الدكتور واتسون نحوي، أو انتباه صديقه. قد يتعرف عليّ أخي. علاوة على ذلك، في أي لحظة قد تستعيد الليدي سيسلي حواسها وتقول اسمي، الذي - لحمقي - أخبرتها به.

كُل خلعاتي أخبرتني أن أهرب.

ومع ذلك، بدلاً من الهرب، مثل فراشة سوداء كبيرة تنجذب إلى لهب الشمعة، مكثت في الغرفة مع الآخرين.

مع أخي.

مع الفتاة التي أردت أن تكون صديقتي. ومع الحنون الدكتور واتسون.

ركع واتسون بجانب مريضته، وأزال الحبل عن رقبتها. صرخ: «أي نوع من القوة الغاشمة يمكن أن يفعل ذلك في فتاة متسولة!». نادى: «روز، استدعي الشرطة!».

افترضت أن روز هي الخادمة التي تعاني من الدوار وربما لا تشعر بحالة جيدة لتجيبه. قال هولمز وقد جلب البراندي لواتسون: «هذه لا تشبه الشحاذات. انظر لأسنانها. لقد اعتنت بهم طوال حياتها».

تناول واتسون البراندي ولم يجبه على الفور فقال هولمز: «انظر لبشرتها، ملاحظها. ضيفتنا من الطبقة الأرستقراطية».

«إذا كان الأمر كذلك، إذاً ماذا تفعل...؟».

قاطعته أخي: «هناك لغز ما هنا».

التفت إليّ كالصقر، كنت واقفة على عتبة الباب، ربما على بُعد عشرة أقدام منه. عيناها الرماديتان الفولاذيتان مثبتتان على ثيابي الملطخة، وارتفع حاجبه وهو يسأل: «أهذه دماء؟».

أفترض أن البقع على ملابسي السوداء، وفي ضوء الغاز كان من العسير تحديد ماهيتها. نظرت لأرى ما قصده هولمز. «دماء؟»، قالها الدكتور واتسون الذي تحول نظره نحوي، ثم نهض بهدوء وعلى حين غرة وقال: «سيدتي، هل أنت مصابة؟».

في الحقيقة، كنت مصابة. وجهي كان يؤلمني كثيرًا إثر لكمة ألكسندر فينش. لكنني هزرت رأسي نافية. مرة أخرى، كان بإمكانني الهروب، وكان يجب أن أهرب، لكن بعض الفضول الخبيث أبقاني حيث كنت. سأل الدكتور واتسون: «لم لا تتكلمين؟».

قال هولمز، دون أن ينظر إلى صديقه: «قديسة الشوارع صامتة، هذا ما سمعته». لم يحرك نظراته الرمادية عني كما لو كان يحاول اختراق حجابي.

قال الدكتور واتسون: «أو ربما هي مصابة، وتعاني من الصدمة. هذه البقع تبدو دماء. كمية من الدماء.» «لا نملك المعلومات الكافية لنصل لاستنتاجات». قالها هولمز واتجه نحوي ليحقق معي. أخرجت خنجري.

توقف أخي عن الاقتراب، ربما على بعد ستة أقدام مني. بدا أن كل شيء توقف في تلك اللحظة عندما هددته بالشفرة الفولاذية الحادة. حتى دقائق الساعة بدت وكأنها توقفت. أتذكر السكون التام، الصمت التام.

في النهاية كسره واتسون بصوت متوتر: «لا أظن أنها دماؤها يا هولمز».

تكلم المحقق العظيم: «أود أن أعرف دماء من!»، ثم مديده نحوي في لافتة سلمية ولكنها قمعية، وبدا في حديثه محتجًا أو متملقًا: «أختي العزيزة...».

أخته العزيزة!

لكم أثرت في تلك الكلمات بشكل غريب.

لا أعرف كيف خرج صوتي الأرسقراطي قائلاً: «لا تتعطف عليّ!»، لم ينبغ عليّ أن أتحدث قط: «لست في حاجة للمساعدة. أما الليدي سيسلي»، أشرت نحوها بنصل خنجري: «ابنة الكسير أوستاس أليستير، فتحتاج لأكثر من العناية التي أستطيع منحها إياها».

على الرغم من أنه من غير المرجح أن تتلقاها على الإطلاق - رعاية اغترابها عن النفس ويسراها. ولكن إذا كانت الشرطة في الطريق، فلم يكن هناك وقت للشرح.

تابعت: «الشريير الذي استحوذ عليها...».

قاطعني أخي بصوته الزجاجي وبنبرة يشوبها الشك: «إينولا؟». شحب وجهه كما لون الرخام الناعم.

قلت: «لا تتحدث. أنصت». لم يكن هناك وقت للدراما. كان عليّ أن أنهي قولي: «أرجوك انتبه لما أخبرك إياه. الشريير هو ألكسندر فينش، وهو شاب افتعل ذات يوم واقعة ليخلق صداقة مع الليدي، ومذاك سحرها واختطفها. يتنكر في زي مناصر للعمال يدعى كامرون شو. ستجد أدوات تنكره لمقاة في الشارع، ومن المرجح أن تجده جريحًا في مستشفى ما».

أملت أن يستوعب الدكتور واتسون ما أقول، لأن من الواضح أن أخي لم يفعل. قال بالنبرة ذاتها: «إينولا؟».

وبعد أن فعلت كل ما في وسعي لتحقيق العدالة، هدأت من نبرة صوتي إلى حد كبير وقلت: «أخي العزيز، من فضلك لا تشغل بالك بشأني. في اليوم الذي سرقت فيه كتيب التشفير الخاص بي من مكتبك، هل وجدت بالصدفة منديلاً يخصني، ملفوفاً حول شريحة من البصل؟».

أردت إقناعه فما كانت دموعي سوى أداء مسرحي. لأؤكد له. لكن لم يبد عليه علامات الاقتناع. مال نحوي. وملاحظه المرمية نابضة بالحياة وقليل من العاطفة وقال: «إينولا، يجب أن تتحلي بالعقل. لا يمكنك أن تستمري في هذا الطريق الأحمق وحيدة ودون توجيه!».

بدا الدكتور واتسون متململاً على وشك أن يقول شيئاً ما - كنت أخشى أن يفعل ذلك - لكن حركة وأنيماً من الليدي سيسلي استحوذت على اهتمامه.

ستتعاقي.

ارتجف قلبي وهو يتخلى عن آمال إقامة صداقة معها، يجب أن أقنع بمجرد الاطمئنان على أمنها. وآمل أن تحظى في النهاية بحريتها.

قلت لأخي في هدوء: «شارلوك، أنا أحسن صنعاً بمفردي، أشكرك».

«هل تقصدين أن تخبريني أن كل شيء على ما يُرام؟».

«بالطبع. إلا أنني قلقة نوعاً ما على أمننا، لأنني لم أتلق منها إجابة على رسالتي الأخيرة».

«إذاً أخبريني أين هي وسأعثر عليها!».

آه! حسناً هو لا يعرف على أي حال كل شيء. أجبت: «هذا لن يلائم رغبتها، مهما كانت درجة الخطورة».

«وأنت إينولا؟ هل تصرين على اتخاذها مثلاً أعلى؟ ستتأذين!».

أخبرته بأرق نبراتي، رغم أنني لم أخفض خنجري لأنه من الاقتراب مني: «عزيزي شارلوك، أكبر أذى قد تعرض إليه سيكون خسارتي لحريتي، وإجباري على عيش حياة منزلية تحفها الواجبات والزواج».

«لا يمكنك أن تعني ما تقولينه. كل امرأة محترمة لها مكانها الصحيح في المجتمع».

تحرك خطوة نحوني فأوقفته بإشارة من خنجري: «لا تقترب، أحذرك».

في الواقع ما كنت لأؤذيه أبداً، لكنه لم يعرفني جيداً لذا توقف وقال متوسلاً: «لا أستطيع أن أصدق كلمة ما تقولينه يا أختي العزيزة. دعيني أرى وجهك».

كانت رغبته بسيطة لكنني لم أسمح له بها، لو فعلت لميزني الدكتور واتسون، أو بالأحرى تعرف على إيفي ميشل.

«لا».

ثم أدركت أنها كانت محاولة لإلهائي عن سلاحي، سأحتاج لكلتا يدي لأرفع الحجاب.

«لا يا أخي الحذق، لن ترى وجهي». نبستها بنبرة حانية، أملة أن يعتبرها إطراءً على شخصه ثم أضفت:

«سأغادر الآن. أرجوك أن تنقل تحياتي الطيبة لأخيينا مايكروفت».

صدرت ضجة كبيرة خلفي. في الحال أخفضت سكينتي لإخفائه في طيات عباءتي، استدرت وخرجت مسرعة من المكتبة، في اللحظة التي فتحت فيها الخادمة الباب للشرطي.

صرخ أخي: «أوقفها!». لكن الخادمة كانت بالفعل تقود الشرطي نحو موضع الليدي سيسلي، وقبل أن

يتمكن شارلوك هولمز من الصراخ مجدداً، فررت إلى الشارع.

«أوقفوها!». رن صوت أخي في ذهني يهز جنبات الليل.

سمعت مطاردة ورائي، وأقدام الشرطي الهادرة، وخطوة أخي الأخرى وزناً والأوسع. مثل حيوان مطارد، قفزت فوق درابزين حديدي وسقطت في قبو الخدم. هربت من أجل حياتي ذاتها - فقدان الحرية كان من شأنه أن يقتلني - أسرع في الطريق الخلفي وهكذا في متاهة حظائر الأدوات وورش العمل وحظائر الحيوانات خلف المنازل. وبينما كنت أتوقف داخل إسطنبول لالتقاط أنفاسي، سمعت أخي يتحدث مع الشرطي ثم سمعت الأخير يتوقف عند كابينة الهاتف في زاوية الشارع.

يا لها من ورطة. في غضون لحظات ستلتفت أنظار كل شرطة لندن نحوي.

قال أخي بنبرة أمرة لأحدهم: «اجلب لي مشكاة. لا يمكن أن تكون ذهبت بعيداً».

ركضت إلى الطرف الآخر من الإسطنبول تحركت بشكل أعمى، كانت أفكارني محمومة، يائسة. شارلوك هولمز يفتش كل إسطنبول للخيل، وكل حظيرة أبقار، وكل منازل المنطقة، بينما كانت الشرطة في الشوارع تقوم بدوريات. ليس هناك مكان للاختباء.

عباءتي السوداء وحجابي، شخصيتي الأخرى - لقد ميزوني، الآن وإلى الأبد. اضطررت للتخلص منهم.

لكن ماذا بعد؟ أختبئ في الظلال؟ أحتاج إلى مأوى لأغير ثيابي ومظهري.

لكن أين يمكنني أن أذهب؟ وكل الرجال انقلبوا ضدي. وكل النساء تحت رحمة الرجال. بما أنني اخترت أن أرفض ما تقبله الفتيات، هل سيكون الأمر دوماً هكذا؟ ركض، اختباء، مراوغة، تخفٍ؟

إينولا، وحيدة؟

لم أسمح لنفسي بالإجابة على هذا السؤال بل أجبرتها على التفكير فيما يجب فعله في الوقت الحالي، خرجت إلى طريق مرصوف بالحصى، هذا مكان أعرفه.. هذا شارع بيكر.

قدمي، التي يبدو أنها تمتلك ذكاءً أكبر من عقلي، حملتني إلى المكان الوحيد حيث من غير المرجح أن يبحث أخي عني.

هرولت نحو المبنى رقم 221 محملة بطاقة وليدة الأمل، ثم اتجهت خلف المنزل.. في الفناء الخلفي الصغير، كما لاحظت في زيارتي السابقة، وقفت شجرة واحدة مقبضة معروفة باسم «طائرة لندن». لم يستغرق الأمر سوى مناورة طفيفة للصعود إلى سطح شرفة المطبخ.

لا داعي للعجلة.

بينما كنت جالسة ألهث، مر شرطيان على الرصيف المقابل للمنزل. أحدهما خاطب الآخر: «متخفية في ثياب راهبة، هذا ما يقوله الرقيب».

أجابه الآخر: «وتحمل خنجرًا، ما أسمع غير منطقي. يصعب تصديقه، لكنهم يقولون أنها خطيرة».

«تعاني من الهستيريا، هذا مرض شائع في جنسها».

تساءلت: أهذا ما يظنه شارلوك بي. مجنونة مصابة بالهستيريا. بلى، من المحتمل.

خلعت حذائي لأتحرك دون صوت، سرت فوق السطح لأصل إلى النافذة التي رجحت أنها تقود لغرفة

أخي.

عاجته برفق، وفتحته ببسر بالغ، كما توقعت لم يكن مُغلقاً بالأقفال. أخي، رغم كل شيء، ربه والدتي، ويهتم بنوم صحي، نوم يتطلب أن يدلف الهواء النقي إلى الغرفة في الليل.

انسللت إلى الداخل، وأغلقت النافذة خلفي. خططت كيف يمكنني البحث في خزانة ملابسه عن شيء

آخر ارتديه. أعرف أنه يحتفظ بالعديد من الأزياء التنكرية. أحياناً ما تخفى في زي امرأة عجوز. كل ما

أحتاجه هو تنورة ووشاح وقبعة.

ثم سأنتظر وأستريح حتى أسمع الباب يُفتح قبل أن أنسل خارجة من النافذة كما دخلت. عرفت أنني لا ينبغي أن أتكرر مجددًا في هيئة قديسة الخير. وتساءلت هل من الأمن أن أستمر في دور إيفي ميشل. ربما لا. سيتناقش هولمز مع واتسون بلا شك في أحداث الليلة، وربما يعترف واتسون بزيارته للدكتور راجوستين.

تساءلت أيضًا هل سأتمكن من مقابلة الليدي سيسلي مجددًا. ربما لا. كانت الطريقة الوحيدة بالنسبة لي لأكون آمنة وحررة أن أكون ما قرره اسمي. إينولا.. وحيدة.

وضعت وقودًا في المدفأة في منزل 221 شارع بيكر، وشعرت بألم هذه الوحدة يتسرب إليّ. ولكن أيضًا بعض العزاء: سواء عرف ذلك أم لا، وسواء راق له ذلك أم لا، فأخي شارلوك يمنحني ملجأً كما يتعين على الأسرة أن تفعل لأفرادها. منحني مأوى.

لا يزال برد الشتاء القارس فبراير 1889

عند الفجر، يصعد المحقق العظيم السلام المؤدية لمسكنه. خطواته مضطربة على غير العادة بسبب التعب والإحباط من الساعات التي قضاها في البحث عن فراشة سوداء توقفت لبضع لحظات في متناول يده تقريبًا قبل أن تحتفي في الليل كالشبح.

لكن أخته ليست شبحًا. هي مجرد فتاة نحيفة، لا تملك جناحين، وليس من الممكن أن تكون قد طارت بالفعل بعيدًا عن لندن القاسية. إلى أي مكان بإمكانها الوصول؟ لماذا لم يتمكن من العثور عليها؟ أحنى رأسه وكتفيه من وطأة الفشل، ودلف إلى مسكنه في سكون ثم أغلق الباب وراءه. غريب. غرفة الجلوس دافئة كما لو أن أحدهم أشعل النار طوال الليل. لكن هذا مستحيل. مع ذلك الغرفة دافئة. نظر إلى المدفأة، رأى ألسنة اللهب تتقاذف بمرح، وجد نفسه في حالة تأهب تام، لمن؟ من هو الدخيل؟ زاد من قوة النار ليرى حوله، لكن في داخله شك يتزايد، وأسى كما المطعون في قلبه، أغلق قبضته ليمنع نفسه من الصراخ غاضبًا.

في الموقد يرى كمية كبيرة من القماش الأسود المتفحم، الذي كان في السابق ثياب «الراهبة». يمكنه أن يتوقع العثور على بعض الملابس المفقودة من ثيابه المستخدمة للتخفي. قد تمكنت شقيقته الذكية من الهروب بعد أن أمضت الليل محتبئة في مسكنه الخاص، المكان الوحيد حيث لم يفكر في البحث عنها. تتم بأسنان تصطك من الغضب: «يا للفتاة الذكية! الوقحة، الجريئة، جرأة مطلقة لا هودة فيها!». لكن بينما تشعله حنقًا الأدلة على أن أخته قد تفوقت عليه مرة أخرى، تسترخي قبضته، وترتعش شفاته الرقيقتان في ابتسامة، ويبدأ بحرارة وفرح في الضحك.

يظهر ما يلي في أعمدة بال مول جازيت: «انتبهي يا أفحوانتي: الحرف الثاني من البراءة، السادس مرتين من التحدي. أيضًا الثالث والرابع؛ الثاني والثالث من المغادرة والسادس مرتين من التحدي مرة أخرى. عزيزتك، إيفي».

يُقرر المرسل أن تلك الشفرة الغامضة هي الأفضل لأن على مكتب أخيها اللدود شاهدة ورقة تحمل رموزًا محيرة:

؟؟؟ الحب الحقيقي

النقاء الفكري

البراءة الإخلاص

المغادرة

EITOF P or A, D, or E??

لكم من المدهش أن المحقق العظيم عجز عن فك تلك الشفرة، التي تبدو للفتاة الأكثر سهولة! وإذا كان فعل ذلك، ألم يكن ليعثر على العجر؟ لذلك أرسلت لها رسالة: كل شيء على ما يُرام. لأنها خمنت - وتمنت أن يكون تخمينها صائبًا - سبب عدم إجابة والدتها.

أغلقت مؤسسة الدكتور راجوستين حتى إشعار آخر، أي إلى حين يُقرر الدكتور راجوستين إذا كان آمنًا الاستمرار في العمل أم لا.

تمنت أن تقضي وقت فراغها الآن في مساعدة فقراء الإيست إند، لكنها تعرف أن الجميع سيراقب أي نشاط خيري حتى خلال الصباح. وبالتالي، حتى يلتئم وجهها المصاب بكدمات وأيضًا حتى تتمكن من التفكير فيما ستفعله تاليًا، فإنها ستلتزم منزلها.

لم تقرأ شيئًا في الصحف عن الليدي سيسلي، أي أن الأمر تم التكتم عليه جيدًا. أما عن ألكسندر فينش، فقرأت سطورًا قليلة في صفحة الحوادث، عن اعتقاله بتهمة الاعتداء بقصد القتل.

لكن الأحداث لن تسير بتلك الرتابة. في خلال أيام تظهر تلك الكلمات المعذبة في صحف التايمز والمورنينج بوست والايفيننج ستاندرد، وكافة الصحف اليومية:

«إلى إ. ه.

أرجوك تحلي بالعقل.

نضمن لك العفو عن شرف عائلتنا، لن نُطرح عليك أسئلة.

أرجوك تواصل مع ش. ه. و م. ه.

لم تستغرق إينولا الكثير من الوقت لتكتب رسالته والتي ظهرت في صحف اليوم التالي: «إلى ش. ه. و م. ه.:

تعفنا.

إ. ه.»

إذا كانت المرأة المحترمة هي مَنْ تأخذ مكانها الصحيح في المجتمع (الزوج والمنزل، بالإضافة إلى دروس صوتية ودروس بيانو في غرفة الرسم)، فإن هذه المرأة بالذات تفضل أن تظل غير لائقة. أو - في قول أدق - عارًا على عائلتها.

بعد عدة أيام تجد رسالة مثيرة في بال مول جازيت.

تمكنت الشابة من فك شفرات تلك الرسالة بسهولة حين قرأتها من اليمين إلى اليسار. تأكد لها أن تخمينها كان صحيحًا بشأن عدم إجابة والدتها. الأم لن، ولا يمكنها، أن تأتي لإنقاذها. أبدًا. لكن أمها لا يمكنها أن ترفض رسالتها. لذلك، هذا الصمت، كان الإجابة الوحيدة من الأم العنيدة. حتى الآن.

ابتسمت في حماس، كانت تكاد تسمع ما كتب في الرسالة: «الإخلاص ليس كرامة مهذرة، كنت أعرف أنك ستصمدين». وفي قول آخر: «ابنتي، عرفت أنك ستبلين بلاءً حسناً بمفردك». كل شيء على ما يُرام؟ كاذبة.

ليس ثمة شيء على ما يُرام.
لكن هكذا قررت الفتاة التي تعني اسمها الوحدة.
لأنها سوف تُقبل على الأيام القادمة بشجاعة.